كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الأسرار البَلاغِيَّة في وَصْفِ حَوْضِ النبيّ ـ ﷺ ـ في صحيح مُسلم

إعداد

د/ هاني عبدالفتاح محمد عبدالفتاح

مدرس البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

(العدد التاسع والثلاثون)
(الإصدار الثاني ـ الجزء الرابع)
(١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م)

الأسرارِ البلاغية في وصف حوض النبي ـ ﷺ ـ في صحيح مسلم

هاني عبدالفتاح محمد عبدالفتاح

قسم البلاغة والنقد – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهـر – إيتـاي البـارود – مصر

البريد الإلكتروني :HanyAbdulfattah1859.el@azhar.edu.eg

الملخص :

هذا بحث بعنوانِ : (الأسرارِ البلاغية في وصف حوض النبي - ﷺ- في صحيح مسلم) ، وقد اصطفيتُ حديثًا واحدًا للدراسة بيَّنتُ فيه دقّة الوصف في تحرير المراد وتحديد المقصود ، فضلاً عن سائر صور البيان . ومن ثَمَّ انتهج هذا البحث منهج التحليل البلاغي ، القائم على إبراز اللطائف البلاغية، وما يميّزها من علاقات بين الألفاظ والمعاني وبين الصور التي تخدم الأسلوب والسياق في أبهى عناصر البيان وخصائص تراكيبه وصياغاته المعجِزة في وصف رسول الله - ﷺ ــ للحوْض. وقد عرضتُ البحث في مقدّمةٍ (فيها تعريف بالموضوع، أسباب اختياره، منهج البحث، خطة السّيْر فيه)، ثم تمهيدٍ (بيَّنتُ فيه : تعريف الوصف عند اللغويين، والنقّاد، والبلاغيين، ومقاييس جَوْدة الوصف عندهم)، ثم جاءت الدراسة في ستةِ جوانبَ على النحو التالي : الجانب الأول: الأسرار البلاغية في وصف مسافة حوض النبي – ﷺ- . الجانب الثاني: الأسرار البلاغية في وصف لَوْن حوض النبي - ﷺ- . الجانب الثالث: الأسرار البلاغية في وصف طَعْم حوض النبي - ﷺ- . الجانب الرابع: الأسرار البلاغية في وصف آنية حوض النبي - ﷺ- . الجانب الخامس: الأسرار البلاغية في وصف موقفه – ﷺ- ممن يردون على حوضه الشريف، وعلاماتهم . الجانب السادس : سمات

وموازنات في حديث الحوض. ثم الخاتمة في نهاية البحث (وفيها أهمّ النقاط التي توصل إليها الباحث)، ثم فهرس المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية : الأسرار – البلاغة – وصف النبي .ﷺ. صحيح مسلم

the Rhetorical secrets in describing the Basin of the prophet, peace and blessings be upon him, in sahih muslim

Hani Abdel Fattah Mohamed Abdel Fattah
Department of Rhetoric and Criticism - Faculty of Arabic Language - Al-Azhar University - Itay Al-Baroud - Egypt
Email : HanyAbdulfattah1859.el@azhar.edu.eg

Abstract:-

This research is entitled the Rhetorical secrets in describing the Basin of the prophet, peace and blessings be upon him, in sahih muslim. I have chosen one Hadith recent study, which showed the accuracy of the description in editing what is intended, as well as all other pictures of the Statement. from here, The research adopted a rhetorical analysis method based on highlighting Rhetorical features, which distinguishes Them from relations between words and meanings, The images that serve the method and context are the best elements of the statement, its miraculous properties and formulation properties describe the Messenger of God, may God bless him and grant him peace, to The basin. The research presented in an introduction (it contains and definition of the Topic, The, reasons for choosing it, the research method, and the plan for walking in it). Then a preamble (I explained: definition of description for Linguists, critics, rhetoric, and measures of quality of description for them), Then the study came in Six aspects as follows: The first aspects : Rhetorical secrets in describing the size of the basin of the prophet, may God bless him and grant him peace.The second aspect: Rhetorical secrets in describing color of the basin of the prophet, peace and blessing' be upon him. The third aspect :Rhetorical secrets in describing the taste of the basin of the prophet, peace and blessing be upon

him.The fourth aspect : Rhetorical secrets in describing the vessels of the basin of the prophet, peace and blessing be upon him. the fifth aspect: Rhetorical secrets the describing his position, and the signs of him, my God bless him and grant him peace, From those who respond to his honorable basin, and their recipes. The sixth aspect : Attributes and balances in the Hadith of the basin . Then the conclusion is at the end of the research, and the most important points that the researcher reached, then the index of sources and references.

Keywords : **secrets, Rhetoric, describing, the prophet, sahih muslim.**

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي هدانا للإيمان، ووفقنا لخدمة سنة سيد الأنام والصلاة والسلام الأتمان الأكملان الأكرمان على أشرف ولد عدنان، أفصح من تكلم بلسان، فكانت أقواله - ﷺ- نصوصًا رائعة في البلاغة والبيان. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

وبعــد ،،،

فمن المعلوم أن كلام النبي ــ ﷺ ــ وحديثه الشريف مُعجز في ألفاظه ومعانيه وصوره ودلالاته ومقاصده، مما يجعل نصوصه غاية في الروعة، ودقة في البيان.

ومن ثمَّ فإننا نجد "الوصف" أحد الأساليب الجمالية التي استعملها النبي -ﷺ- في عباراته النبويةِ، والتي تقرّب المعاني وتزيدها وضوحًا وتكسبها بهاءً ورونْقًا.

وفي الوقت نفسه يتبيَّن لنا أن اصطفاء الألفاظ، واختيار العبارات، وتنوّع الصيغ، وتعدّد التراكيب في الوصف لون من ألوان التصوير الحسي الذي يقدّم للمخاطب والسامع مظهرًا حسيًّا مشاهَدًا، يكاد ينتقل به من عالم الخيال إلى عالم الواقع والإدراك.

ولا نقصد بالخيال هنا البُعد عن الحقيقة والوجود؛ " لأننا نتحدث عن نبي يوحَى إليه، فلا موضع للخيال في أمره إلَّا ما كان تمثيلاً يُراد به تقوية الشعور الإنساني بحقيقة ما في بعض ما يُعرض في باب الإرشاد والموعظة ...؛ فعمله أن يهدي الإنسانية لا أن يزيّن لها، وأن يدلّها على ما يجب في العمل لا ما يَحْسن به في صناعة الكلام، وأن يهديها إلى ما تفعله لتسمو به لا إلى ما تتخيله لتلهو به.

والخيال هو الشيء الحقيقيّ عند النّفْس في ساعة الانفعال والتأثر به فقط ... ثم هو -ﷺ- ليس كغيره من بلغاء الناس يتصل بالطبيعة ليستملي منها؛ بل هو نبي مُرسل متصل بمصدرها الأزلي ليملي فيها "[1].

" فوجود الخيال في الحديث النبوي أمر غير متوقَّع إلَّا عندما يكون مصدرًا للتشبيه والتمثيل والتصوير، ويُراد بها تعميم الحقائق وتفصيلها على الوجه الأمثل والمراد "[2].

وهذا معناه أن وصف النبي -ﷺ- للأشياء نابع من نّفْسٍ إنسانية صادقة، بعيدة عن الهوى، ولا ريْب أن " الوصف الدقيق النابع من البصيرة النافذة وحُسن الإدراك والتدفق العاطِفي أبلغ من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو الوسائل المألوفة في التصوير، إنه ينقل لك أمام عينيْك المشهد حتى تكاد تحس به بحواسك وتلمسه بيديك "[3].

إذَن : الخيال بالنسبة للنبي - ﷺ ــ صدق ، « وليْست الصفة في الحديث ترفًا ولا عبثًا ، وإنما هي مناط الحكم » .[4] أي مناط الحكم الذي تأتي به الغاية والهدف والمقصد من الكلام ، وليس من قبيل المبالغة والادّعاء ، أوْ لا يفتأ أن

---

(١) وحي القلم : مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية ، ط(١) ، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ، (١٨/٣) .

(٢) الحديث النبوي، مصطلحه ، بلاغته ، كُتُبه ، د/ محمد لطفي الصباغ ، ط. المكتب الإسلامي ط(٦) ، بتصرف ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، ص٢٧ .

(٣) التصوير الفني في الحديث النبوي : د . محمد لطفي الصباغ ، ط. المكتب الإسلامي ، ط . أولى ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، ص٤٩١ .

(٤) الحديث النبوي الشريف من الوجه البلاغِية : د. كمال عز الدين السيد ، دار اقرأ ، بيروت ط. أولى ،١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص٤١٩م .

يكون خطابًا مسترسَلاً أو حديثًا مسرودًا ؛ وذلك لأن بلاغة النبي - ﷺ -بعيدة عن الفضول والتقصير ؛ فكلامه - ﷺ -ليس ككلام البشر ، وأفعاله ليست كأفعال البشر أي أن كلامه وفعله نور من نور ووحي من وحي ، قال ــ سبحانه - : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (١).

وهذا معناه أن السنة ليست من صنعه وابتكاره ، وإنما أوتيها ــ ﷺ ــ كما أوتي القرآن ، قال ــ ﷺ ــ : « أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » (٢) ، وعن بلاغته ــ ﷺ ــ يقول الرافعي :

« ثُم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوّة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ....، وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد وبراعة القصد » . (٣)

ويقول في موضع آخر : « وأين من ذلك الفصحاء والبلغاء ، وأنَّى لهم ؟!!؛ إذْ خُصَّ النبي ــ ﷺ ــ بعظمة النّفْس ، وكمال العقل ، وثقوب الذهن، واللسان المتمكّن الخالص الذي يجمع بين سرّ اللغة والبيان والحكمة، ويضمّ بعضها إلى بعض » . (٤) وكيف لا ؟! وقد شهد الله ــ عزّ وجلّ ــ لنبيه - ﷺ -بتمام النعمة

(١) سورة النجم : الآيتان (٣ ، ٤) .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حَنبل : تحقيق / شعيب الأرنؤوطي ، وعادل مرشد ، وآخرين ، إشراف / د. عبدالله عبدالمحسن التركي ، نشر مؤسسة الرسالة ، ط . أولى ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م ، (١٢/١) .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط٨، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م ، ص١٩٤.

(٤) السابق نفسه ، ص٢٢١ بتصرّف .

في المنطق والبيان ، فقال الرحيم الــرحمن : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ (١) ، وقــال ــ ســبحانه ــ :﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴿٦٤﴾﴾ . (٢)

فالوصف ليس مجرّد كلمات تحكي أو عبارات تُقال وتُسْرد ، وإنما الأمر في بيان النبي ــ ﷺ ــ أبعد وأعمق وأقصد من ذلك ، تقول السيدة عائشة أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ : " كان رسول الله ــ ﷺ ــ يحدّث حديثًا لو عدّه العادّ لأحصاه " . (٣)

وفي ذلك أمارة ودلالة على أن عبارات النبي - ﷺ -وأحاديثه الشريفة، وأســاليبه العالية الراقية، وبيانه لم يكن إلّا لأجل تعليم الأمة ونصــحها وإقالــة عثرتهــا ، والتزامها بالدين ، والخُلق القويم الذي لا عوج فيه ولا ضلال ، وكل ذلك نتعلمــه من أسلوب الوصف في صورة واضحة لا لَبْس فيها ولا غموض؛ إذ إنه أسلوب قائم على الحقيقة وتقريب الفَهم ؛ وصولاً إلى الغرض والمقصد الذي يحمل فــي عمومه معنى الترغيب في كلّ ما يقرّب الناس مــن خــالقهم ــ جــلَّ وعَــلا ــ، والترهيب مما يبعدهم عن رحمته وجنابه ولُطفه ، وكأن في هذا الأسلوب النبويّ

(١) سورة النحل ، من آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة النحل ، من آية رقم ٦٤ .

(٣) صحيح البخاري ، تحقيق / محمد زهير بن الناصر الناصر ، رقم ٣٥٦٧ ، كتاب المناقب ، بــاب صــفة النبــي ــ ﷺ ــ نشــر دار طــوق النجــاة ، ط . أولــى ، ١٤٢٢هـــ ، (١٩٠/٤) .

دعوةً إلى التفكّر والتذكرّ والاعتبار، يقول الحافظ بن حَجَر: « هو دعوة إلى امتحان أذهان الطلبة بما يخفى مع بيانه لهم إن لم يفهموه » . (١)

وفي الوصف تحديد للدلالة وتحرير المراد ، وأعظم القيمة في «كشف المعاني ، وتحديد المفاهيم التي بها تكمل الصورة على الوجه الذي يقرّرها في النفْس تقريرًا لا تطلب بعده المزيد» . (٢)

هذا ويتنوّع الوصف في بيان رسول الله - ﷺ - ما بين الوصف بالجملة والوصف بشبه الجملة ، والوصف باللون والحركة ، والحجم ، والشكل ، والوصف بالمعرفة والنكرة ، والوصف باسم الموصول واسم الإشارة ، وأفعل التفضيل ، والضمير ، والحال ، والتمييز ، وكذا الوصف بالأفعال الماضية والمضارعة ... إلخ ، وهذا ما تكشف عنه الدراسة التطبيقية إن شاء الله - تعالى-.

بقي شيء أودّ أن ألفت النظر إليه ، وهو أن هناك علاقة وطيدة، ورحمًا بين كلٍّ من (الوصف والتصوير) ؛ حيث إن الوصف لون من ألوان التصوير ، ووسيلة من وسائله، ونوع من أنواع البيان الذي يكشف عن المقصود بأبلغ لفظٍ كالتشبيه والاستعارة والكناية وبعض الفنون الأخرى التي نلمسها وتظهر لنا في حديث رسول الله - ﷺ -كفنّ القصّة ، والتجسيم ، والتشخيص ، والإشارة ،

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : لأحمد بن علي بن حجر العسقلانِي ، تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي ، دار المعرفة ، سنة ١٣٧٩هـ ، وانظر ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٧م، (١/١٧٦,١٧٧).

(٢) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية : د. كمال عز الدين السيد ، ص٤١٣ .

والرمز ، والرسم، «والصفات تملأ إطار الصورة بما يعطيها الشكل والحركة والحياة ، وينطق بالوجدان الداخلي للموصوف» . (١)

وصفوة القول في ذلك كله : أن البيان النبوي الشريف جاء حافلاً بجمال نَظْمه وألفاظه ، وتعدّد صوره، وتنوّع صيغه وتراكيبه ومقاصده ، مما يجعل نظمه ونصوصه قمّة في الإعجاز ــ بعد كتاب الله عزَّ وجلّ ــ وغاية في الدّقة والترتيب والإحكام ، وروْعة في البيان ، وكيف لا ؟! وكلامه ــ ﷺ - « كلام كلّما زدته فكرًا زادك معنىً ، وتفسيره قريب كالروح في جسمها البشري ، ولكنه بعيد كالروح في سرّها الإلهِي ... ، فهو من لسان وراءه قلب ، وراءه نور، وراءه الله ــ جلّ جلالُه ــ » . (٢)

أسباب اختيار الموضوع :

أولاً : شرف الانتساب إلى حقل الدراسات البلاغية في حديث النبي - ﷺ - وتذوق بلاغته ؛ حبًا في النبي المختار ، وأملاً في نيْل شفاعته ــ ﷺ - يوم لا ظلّ إلا ظلّه .

ثانيًا : لما عليه هذا الفن من القول من أهمية في اللغة تربط اللاحق بالسابق ، وتصل القديم بالحديث في كثير من مجالات القول والفنون ، كالخطابة والشعر وغيرهما من ضروب الكلام التي تثير التفاعل بين المتكلم والمخاطب ، واللغة والمجتمع ؛ تحقيقًا للفائدة المرجوّة التي هي مقصد المتكلم من هذا الأسلوب بشكلٍ بلاغيٍّ موجَز .

---

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية : د. كمال عز الدين السيد ، ص٤١٣ .

(٢) وحي القلم : للرافعي (٣/٦,٧) .

ولعل ذلك من أبرز ما يتسم به الحديث النبوي ، وهو البيان المعجز الــذي لا يتكدّر مهما كثر عليه الواردون ، ونهل منه الباحثون ، فهو ذو عطاء مستمر ، وقيمة متجددة ، وفيه لذّة وحلاوة غير مقطوعة ولا مجذوذة .

ثالثاً : إعمال الذهن في محاولة إيجاد العلاقة بين الصفة والموصوف ، وما الأحوال التي راعاها النبي - ﷺ - في وصفه ؟ وما الأغراض التي يؤمها في هذا الوصف ؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي تتوافد على القلب حين يتــدبّر بيــان النبوّة في هذا الباب ، وذلك ضرب من الإثارة التي تسترعي الانتبــاه ، وتجلــب الوقوف والتركيز على الصورة المنوط بها الحكم في الوصف وعلاقتها بالســياق جملة وتفصيلاً .

رابعاً : في الوصف تغيير لوجهة النظر عبْر تساؤلات تثير في نفْس السامع دهشةً وكأنه يسمعها لأول مرّة ، مما نفهم منه أن هذا الوصف سبيل لغوي يؤدي إلى الإقناع ، وتفتيح الذهن لتفهّم المعاني ، وما أحوجنا إلى ذلك الفهم البعيد عن اللَّبس والغموض والتكلّف ؛ وصولاً إلى الحقائق العلمية والفنون البلاغية ، ولن يكون ذلك إلا عن طريق الدرس البلاغي وتطبيقه والمعاناة في تحليله وتذوقــه ، خصوصًا وأن هذه البلاغة من منابع أفصح الخلق وأبْين البشر لسانًا ؛ حتى نجني ثمار هديه ، ونزداد يقينًا وإيمانًا ونورًا يهدينا إلى الحق وإلى صراطٍ مستقيم.

خامساً : حاجة الأمة الإسلامية الآن إلى كثير مــن ســبل العلــم والهــدْي والتوجيه ، فكان أسلوب الوصف أحد هذه الأساليب التي تدعو إلى التربية النفسية والسلوكية والعقدية (حسيًّا ومعنويًّا).

والوصف من الوسائل التربوية التي كان يتخيّرها النبي - ﷺ - فــي تعلــيم الصحابة الكرام ــ رضوان الله عليهم ــ ؛ فقد أجاد استعماله بما أبدع في وصفه

من وسائل وصور بيانية للمعاني أوسع مما تعارف عليه البلاغيون (قديمًا وحديثًا).

سادساً : وجدتُ في هذا الموضوع إثراءً لعملية الدعوة إلى الله ــ عزّ وجلَّ ــ ، وذلك من خلال فن الخطابة في المساجد ، والندوات والاحتفالات الدينية وقاعات التدريس اللغوية، ومجالسة أهل العلم واللغة والتخصص ، وغير ذلك من المجالات التي نرى فيها ارتباطًا حميمًا بين اللغة والدين ، وفي كلٍّ يعرض المتكلم نتاج عقله وبنات أفكاره ، مستخرجًا ومستفرغًا كل ما في جعبته من قضايا ، يجذب انتباه الناس إلى حديثه ، ويشوّقهم إلى الدعوة ؛ خدمةً للدين والمجتمع ، ولن يكون ذلك إلّا إذا كان المتحدث ذا بصيرة نافذة ، وأسلوب فنيّ راقٍ يبرز في صورة رائعة رائقةٍ مؤثرة ، ولسان مبدع مبين يجذب المخاطب إلى التفكير والعظة والعبرة .

فكان من الواجب علينا إجراء بحوث بلاغية ممتدة متضافرة الجهود ، متلاحقة المجهود، يضم بعضها بعضًا في هذا المضمار ؛ لبيان أن هذه البحوث جديرة بأن تواكب العصر ، وتعايش المجتمع ، وجديرة بأن تساير النهضة العلمية التي تعمل على توسيع الجهد وبذل الطاقة وامتداد العلم وَرَحِمِه بين العلماء وبعضهم ؛ خدمةً لدين الله ــ تعالى ــ ولغته في كل زمان ومكان ، فكان مثل هذا الموضوع في الوصف والبيان النبوي مرتبطًا بأحوال الناس ومواقفهم ومقتضى متطلباتهم في كل عصر ودهر ، وترسم لهم أفضل الطرق التي يعبّرون بها عن أغراضهم ومقاصدهم الدنيوية والأخروية ؛ لينالوا بذلك رضوان الله الأكبر ، والفوز بجناته يوم الدين .

منهج البحث :

تعتمد الدراسة في البحث على المنهج التحليلي المحض ، القائم على التذوق والإدراك ، واستنباط الخصائص والميْزات البلاغية في النصّ الوارد في وصف حوضه الشريف ــ ﷺ-.

ويقوم المنهج في معالجة البحث على الخطوات التالية :

اختيار أنموذج واحد فقط في وصف حوض النبي - ﷺ -الشريف، تم تقسيم هذا النص النبوي إلى عدّة جوانب كلها مُعَنْوَنَة تحت التحليل البلاغي واستخراج اللطائف البلاغية النبوية الرائعة .

ولقد اكتفيت بهذا الأنموذج فقط من صحيح مسلم ؛ لتعدّد الروايات واجتماعها ــ غالبًا ــ تحت لفظٍ واحدٍ ؛ ولما فيه من ثراء بلاغيٍّ واسع ، حافل بالأساليب والسياقات المختلفة والموضوعات المتعددة الجديرة بالبحث والتحليل وبيانِ الفكرة (موضوع الدرس) .

تخريج الأحاديث المضمنة في الدراسة التحليلية من خلال الكتب الصحاح .

شرح الحديث شرحًا مختصرًا ينمّ عن الغرض الذي سيق من أجله ، وذلك بالاعتماد على قراءة الحديث قراءة جيدة ، وفهمه فهمًا مستوعبًا لأدق تفصيلات المعنى فيه .

بيان معاني المفردات اللغوية ؛ لإبراز المعنى المقصود ، وذلك من خلال المعاجم اللغوية ؛ ليتسنى للبحث إخراج ما عليه فن "الوصف" من صور فنيَّةٍ ، وأسرار بلاغيةٍ في بيانه الشريف ــ ﷺ-.

التحليل البلاغي للنصّ النبوي الشريف ، وإبراز أوجه الإعجاز فيه ، وبيان أثر ذلك في إيجاد العلاقة والتناسب بين الصفة والموصوف في الجملة من وجوه وطرائق بلاغية ومعان دلالية ورموز وإشارات استخدمها النبي ــ ﷺ ــ في

أحاديثه الوصفية ، مثل : اصطفاء الألفاظ ، مجيء المعاني في صورة كائنات حيَّة لها أثرها الفعال على الرجل العربيّ الصحراويّ ، وذلك كالحيوان والنبات وغيرهما ، أو في صورة كائنات صامتة كالجماد مثل الأماكن وما يترتب عليها من إيحاءات وإيماءات يقصدها النبي ــ ﷺ ــ؛ لاستخراج المعنى المراد والمكنون داخل النصّ ، أو في صورة كائنات متغيرة متجددة كصورة الليل والنهار ، الصيف والشتاء ، الحر والبرد ، الشمس والقمر ... وهكذا ، وغير ذلك من أوصاف يكمل بها المعنى ويتضح بها المقصود في حديث رسول الله ــ ﷺ ــ كالوصف بالحجم والحركة واللون والصوت ، فضلاً عن الدلالة النفسية التي لها أعظم الأثر في فهم النصّ وتذوّقه ، ولا ريب في أن لكل ذلك أثره في إيصال المعنى واضحًا جليًّا ، « وكل ذلك من أجل التعرّف على الصورة أو الظاهرة أو الحديث من حيث المحتوى والمضمون ، والوصول إلى نتائج تساعد على فَهم الواقع وتطويره ».[1]

خطة البحث :

اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة ، وتمهيد ، وستة جوانب ، وخاتمة وفهرسيْن (أحدهما للمصادر والمراجع ، والآخر لمحتوى البحث وموضوعاته) .

أما المقدمة: ففيها تقدمة عن عنوان البحث ، وأسباب اختياره ، ومنهجه ، وخطة السّيْر فيه.

وأما التمهيد : فتناولت فيه أربع نقاطٍ على النحو التالي :

أولاً : تعريف الوصف عند اللغويين .

ثانياً : الوصف من المنظور البلاغي والنقدي .

ثالثاً : مقاييس جَوْدة الوصف عند العلماء والنقاد .

(١) البحث العلمي أسسه ومناهجه وأساليبه وإجراءاته : ربحي مصطفى ، عمان ، بيت الأفكار الدولية ، بدون تاريخ ، ص٤٨ .

رابعاً : الفرق بين الوصف والتشبيه .

ثم جاءت الدراسة التحليلية في ستة جوانب هي :

الجانب الأول: الأسرار البلاغية في وصف مسافة حوض النبي -ﷺ- .

الجانب الثاني: الأسرار البلاغية في وصف لَوْن حوض النبي – ﷺ– .

الجانب الثالث: الأسرار البلاغية في وصف طَعْم حوض النبي – ﷺ– .

الجانب الرابع : الأسرار البلاغية في وصف آنية حوض النبي – ﷺ–.

الجانب الخامس: الأسرار البلاغية في وصف موقفه ــ ﷺ ــ ممن يردون على حوضه الشريف، وعلاماتهم .

الجانب السادس : سمات وموازنات في حديث الحوض .

وبعد :

فإنه لا يسعني في الختام إلَّا أن أشكر الله ــ عزّ وجل ــ على إتمام هذا البحث المتواضع ، داعيًا ربي ــ جلَّ وعلا ــ أن أكون قد وفقت في هذا العمل ، راجيًا منه الإخلاص والقبول ، والصدق في القول والعمل ، وعموم النفع لكل قارئٍ من المسلمين والمسلمات ، وأن يجعل هذا العمل في موازين حسناتي وحسنات والديّ الكريميْن وأساتذتي وشيوخي ومَنْ لهم فضل عليَّ من قريبٍ أو بعيد يوم الدين ، وأن يضاعف لي أجر ما قضيته من أوقاتٍ في خدمة سنة نبيه الأمين ، وأن يجمع بيننا وبينه -ﷺ-في جنات النعيم ، إنه سميع قريب مجيب كريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

التمهيد

أوّلاً : تعريف الوصف عند اللغويين :

الوصف كلمة مأخوذة من وصف الشيء له وعليه وصفًا وصفةً : حلّاه . وقيل : الوصف المصدر ، والصفة الحلية ، وقال الليث : الوصف وصفُك الشيءَ بحلْيته ونعته ، وتواصفوا الشيء من الوصف ، وقوله ــ عزّ وجلّ ــ : ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾[1] أراد ما تصفونه من الكذب . واستوصفه الشيءَ : سأله أن يصفه له ، واتصف الشيءُ : أمكن وصفه . [2]

وقيل : وصف الشيء وصفًا وصفةً : نعته بما فيه . ويقال : تواصفوا الشيء وصفه بعضهم لبعض ، واستوصف فلان الطّبيبَ : سأله أن يصف له ما يتعالج به . والصفة : الحالة التي يكون عليها الشيء من حِلْيته ونَعْته ، كالسواد والبياض ، والعلم والجهل . [3]

والوصف أصله من الكشف والإظهار ، يُقال : وصفَ الثوبُ الجسْمَ : إذ أنمَّ عنه ولم يستره .

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ١١٢ .

(٢) لسان العرب : لابن منظور ، مادة "وصف" ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

(٣) المعجم الوسيط : إبراهيم أنيس ، وآخرون ، مادة "وصف" ، دار الفكر ، ط٣ ، سوريا ، ١٩٩٨م .

والوصف : ما ينعت به الشيء من صفات ونعوت ، وقوله تعالى : ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾[1] أي تقول الكذب وتحققه . [2]

وقيل : مأخوذ من قولهم : وصف الثوب الجسْم ،. إذا أظهر وبيَّن هيئتــه ، ويُقال : الصفة إنما هي بالحال المنتقلة ، والنعت بما كان في خَلْــق أو خُلُــق . والصفة من الوصف مثل العِدة من الوَعد ، والجمع صفات . [3]

وقيل : المراد بالوصف ليس صــفة عرضــية قائمــة بجــوهر كالشــباب والشيخوخة ونحوهما ، بل يتناول جوهرًا قائمًا بجوهرٍ آخر يزيد قيامه به حُسْــنًا له وكمالًا ، ويورث انتقاصه عنه قبْحًا ونقصانًا . [4]

وقيل : الوصف عبارة عما دلَّ على الذات باعتبار معنىً هو المقصود مــن جوهر حروفه ، أي يدلّ على الذات بصفةٍ كأحمر فإنه بجوهر حروفه يــدلّ علــى معنى مقصود وهو الحمرة ، فالوصف والصفة مصدران كالوعد والعِدة . [5]

---

(١) سورة النحل: من الآية ٦٢ .

(٢) معجم الألفاظ والأعلام القرآنيــة : محمــد إســماعيل إبــراهيم . ط . دار الفكــر ، ط٣ ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، صـ ٧٥٦ .

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير : أحمد بن محمد بن علي الفيومي ، مادة "وصف" نشر المكتبة العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

(٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : لأبي البقاء الكفوي الحنفــي ، تحقيــق / عدنان درويش، محمد المصري ، نشر مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط. أولى ، ١٤١٢هـ صـ٩٤٢ .

(٥) كتاب التعريفات : علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني ، نشر دار الكتــب العلميــة ، بيروت ، لبنان ، تحقيق / مجموعــة مــن العلمــاء بإشــراف دار النشــر ، ط. أولــى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، صـ٢٢٥ .

وفي (المعجم المفصل في الأدب) : نجد أن الوصف جزء طبيعي من منطق الإنسان ، فالإنسان بطبعه ميّال إلى معرفة ما حوله من الموجودات ، وتصويرها بالسمع والبصر والفؤاد . (١)

وقيل : الصفة هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات ، وذلك نحو طويل وقصير ... ، والذي تساق له الصفة هو التفرقة بين المشتركين في الاسم ... ، والصفة والنعت واحد ، وقد ذهب بعضهم إلى أن النعت يكون بالحِلْية نحو طويل وقصير ، والصفة تكون بالأفعال نحو: ضارب وخارج ، ... والصفة لفظ يتبع الموصوف في إعرابه تحلية وتخصيصًا له بذكر معنًى في الموصوف أو في شيء من سببه ، وذلك المعنى عرض للذات لازم له ... ، ولا تكون الصفة إلّا مأخوذة من فعل أو راجعًا إلى معنى الفعل ، وذلك نحو اسم الفاعل نحو ضارب ، واسم المفعول نحو مضروب ، أو صفة مشبهة باسم الفاعل نحو حَسَن ... ؛ وذلك ليدل باشتقاقه على الحال التي اشتُقَّ منها مما لا يوجد في مُشاركه في الاسم ، فيتميَّز بذلك . (٢)

كما نجد من العلماء من يُرجع مصطلح الوصف بمعناه العام إلى المنهج اللغوي الخالص دون فروض أو آراء شخصية ، الأمر الذي يؤدي إلى نتائج تتفق وواقع اللغة (بيئةً وزمانًا ومكانًا).

فالبحث عن لغة الوصف إنما يجب أن يكون بحثًا في لغة الحياة اليومية التي يستعملها الناس في مجتمعهم ، وهي ما تسمى بـ" اللغة المستعملة " ، لا تلك

---

(١) المعجم المفصل في الأدب : محمد التونجي ، ط. أولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٩٣م ، (٨٨٤/٢) .

(٢) شرح المفصل : ابن يعيش النحوي ، تقديم / د. إميل بديع يعقوب ، نشر دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط، أولى ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، (٢٣٤,٢٣٢/٢) .

التي صنعها النحويون ؛ لذا على الواصف أن يصف ما يراه وما يحسّه وما يسمعه بأسلوبه هو ، وبلغته هو ، وبمفهومه هو ، دون أن يفرض القواعد[١] ، ولذلك قيل : "إن على عالم اللغة أن يصف لا أن يفرض القواعد".[٢]

وبالتأمل في هذا الرأي نجد أنه يدعو إلى الوصف عن طريق الإحساس والذات بكل معانيه ، من حيث الطول والقصر والشكل والمضمون والحركة والسكون ، وبذلك يستطيع الواصف أن يصف الشيء دون أن تقيّده اللغة بقاعدة معيّنة، أو تفرض عليه وصفًا معيَّنًا يتمشى مع لغته ، مما يدل على السعة في الوصف لكل ما ترى وتشاهد وتسمع وتحسّ ، فضلاً عن التعبير بأسلوبٍ يراه المتكلم مناسبًا للواقع والبيئة والزمان والمكان ، والله أعلم .

وعلى أيّ حال فلا مشاحة في كل هذه التعريفات ؛ لأنها في جميعها تؤدي إلى غرض واحد وتصب في قال واحدٍ ومعنًى واحدٍ ، وهو بيان الشيء وتوضيحه والكشف عن حاله وهيئته دون زيادة أو نقصان .

ثانياً : الوصف من المنظور البلاغيّ والنقديّ :

قال ابن رشيق : " أصل الوصف : الكشف والإظهار ، يُقال : وصف الثوبُ الجسْمَ ، إذا نمَّ عليه ولم يستره " . [٣]

---

(١) تمثلات المنهج الوصفي الإحصائي في الدراسات اللغوية : د. عاطف فضل ، مجلة التربية والعلم ، المجلد (١٧) ، العدد (٤٠) ، سنة ٢٠١٠م ، صـ١٨٩ بتصرّف .

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية : تمّام حسّان ، دار الثقافة والدار البيضاء ، ١٩٥٨م ، صـ١٦ .

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لابن رشيق القيرواني ، تحقيق / محمد محي الدين ، دار الجيل ، ط(٥) ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، (٢/٢٩٥) .

وقال قدامة بن جعفر : " الوصف إنما هو ذِكْر الشيء ، بما فيه من الأحوال والهيئات " . (١)

وقال أحمد الهاشمي : " الوصف عبارة عن بيان الأمر باستيعاب أحواله وضروب نعوته الممثلة له ، وأصوله ثلاثة :

الأول : أن يكون الوصف حقيقيًّا بالموصوف مفرزًا له عما سواه .

الثاني : أن يكون ذا طلاوة ورونْق .

الثالث : ألَّا يخرج فيه إلى حدود المبالغة والإسهاب ، ويكتفي بما كان مناسبًا للحال " . (٢)

وقيل : " الوصف جزء من منطق الإنسان ؛ لأن النفْس محتاجة من أصل الفطرة إلى ما يكشف لها من الموجودات، وما يكشف للموجودات منها ، ولا يكون ذلك إلا بتمثيل الحقيقة ، وتأديتها إلى التصوّر في طريق من طرق السمع والبصر والفؤاد " . (٣)

وقيل : "الوصف تمثيل الأشياء تمثيلاً إيجابيًّا ، وهو رسم لصورة الأشياء بقلم الفن والحياة".(٤)

---

(١) نقد الشعر : قدامة بن جعفر ، مطبعة الجوائب ، قسطنطينية ، ط. أولى ، ١٣٠٢هـ ، صـ٤١.

(٢) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب : أحمد بن إبراهيم الهاشمي ، مطبعة السعادة ، مصر، ١٩٦٥م ، تحقيق / لجنة من الجامعيين ، نشر مؤسسة المعارف ، بيروت ، (٣٢٦/١).

(٣) تاريخ آداب العرب : للرافعي ، دار الكتاب العربي ، ط. ثانية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٤م ، (١١٩/٣).

(٤) تاريخ الأدب العربي : حنا الفاخوريّ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٦م ، صـ٤١ .

وبالتأمل في هذا التعريف نجد أن مضمونه لا يقلّ شأنًا عن سابقه ؛ لأنه يبيّن أن الوصف لون من ألوان التصوير ؛ " إذ إنه أسلوب يقدّم المظاهر الحسيّة للأشياء كفنّ الرسم أو ما يُعرف بلغة الرسم ، وكان موجودًا عند العرب قديمًا ، ولا يزال يستعمل في تحديد الأشياء ورؤيتها وفاعليتها بيْن الشخص والطبيعة ؛ لأن الرسم إذا كان قادرًا على تقديم الأشكال والألوان والظلال فإن اللغة لا تقلّ عنه شأنًا في تقديم وصف يقدّم المظاهر الحسيّة للأشياء ، ويحدّد الواقع ويكشف الرابط بيْن الشخص والطبيعة " . (١)

وقيل : "الوصف في حقيقته نوع من أنواع القدرة على الكلام ، وفيه إيجاز واقتصار من خلاله يستطيع الفنان المبدع أن يسير في ركب العباقرة الإنسانية ، فيرسم ما يرى ، ويصوّر ما يشاهد ، ويصف ما يحسّ ، وينقل الصوت والحركة والنشاط ، ويرسم الحديث واللون والظلّ ، سواء أكان في رسم الطبيعة أم تصوير الإنسان والحيوان أم في وصف الأخلاق والطباع والعادات".(٢)

وبالمقارنة بين هذيْن التعريفيْن نجد أن الفرق بينهما لا يبعد عن المضمون كثيرًا ؛ فالأول يجعل الوصف في صورة لون حسّي يصل به الفنان إلى تشكيل وتلوين صُوَرِه التي لا تخرج عن الواقع الذي يربط بين الشخص والطبيعة ، بينما جاء التعريف الثاني مبيّنًا أن الوصف نوع من العبقرية الإنسانية ، التي تستطيع من خلال عقلها وَصْفَ كلّ ما في الطبيعة ، فضلًا عن وصف ما يتصل بالإنسان

(١) الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة : د. موريس أبو ناضر ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، صـ١٣٣ .

(٢) الوصف : سامي الدهان ، ولجنة من أدباء الأقطار العربية ، ط/٣ ، دار المعارف ، القاهرة مصر ، ١٩٨١م ، صـ٦ .

من حيث أخلاقه وطباعه وعاداته وبيئته ، فكان التعريف الثاني أشمل وأعمّ من الأول .

ثالثاً : مقاييس جَوْدة الوصف عند العلماء والنقّاد :

تعدّدت آراء العلماء والنقاد البلاغيين حول جَوْدة الوصف على النحو التالي :

قال أبو هلال العسكري : "هو ما يستوعب أكثر معاني الموصوف ، حتى كأنّه يصوّر الموصوف لك فتراه نُصب عينيْك" .(١)

أما الوصف عند ابن رشيق فقد قاس جوْدته بـ" ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع " .(٢)

ومثَّل له بقول النابغة الجعديّ يصف ذئبًا افترس جُؤْذرًا (٣) :

فَبـــاتَ يُذْكِيهِ بِغَـيرِ حَـدِيدَةٍ أَخو قَنَصٍ يُمسي ويُصبحُ مُفطِرا

إِذَا مـا رَأَى مِنهُ كِراعاً تَحَرَّكَت أَصابَ مَكانَ القَلبِ مِنـهُ وَفَرْفَرا

" فأنت ترى كيف قام هذا الوصف بنفْسه ، ومثَّل الموصوف في قلب سامعه ؛ لذا أبلغُ الوصف ما قلب السمع بصرًا " .(٤)

أما قُدامة بن جعفر فقد قاس جوْدة الوصف واستحسانه بقوله : " ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني فكان

---

(١) كتاب الصناعتين : لأبي هلال العسكري ، تحقيق / علي محمد البجاوي ، و/ محمد أبو الفضل إبراهيم ،المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٩هـ ، صـ١٢٨ .

(٢) العمدة : (٢/٢٩٤) .

(٣) ديوان النابغة الجعديّ : تحقيق / واضح الصمد ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٨م ، صـ٤٠ .

(٤) العمدة : (٢/٢٩٥) .

أحسنهم وصفًا مَنْ أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها ، ثم بأظهرها فيه وأوْلاها حتى يحكيه بشعره ويمثّله للحسّ بنعْته " . (١)

أما حُسْن الوصف عند الرافعي فقد قاسه بما خرج عن علم جيد وروعَة ، وهذا من مكملات الصورة الوصفية عنده ؛ ليخرج الواصف بعد ذلك بإبداع أكمل صورة وأجملها ، يقول : " وإن أحسن ما يكون الوصف الصادق إذا خرج عن علم ، وصرّفتْه روعة العجب ؛ فإن العلم يعطي مادة الحقيقة ، والعجب يكسبها صورة المبالغة الشعريّة " . (٢)

وذكر ابن القيّم : " أن أحْسَن الوصف ما يكاد يمثّل الموصوف عيانًا ، ولأجل ذلك قال بعضهم : أحسن الوصف ما قلب السمع بصرًا ، ومنه في القرآن العظيم كثير ، مثل قوله ــ تعالى ــ في وصف البقرة التي أُمر بنو إسرائيل بذبحها لما سألوا أن توصَف لهم بقولهم :﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ .(٣) وقوله لما سألوا أن يصف لهم لوْنها : ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾.(٤) وقوله لما سألوه بيان فِعْلها : ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾.(٥) فجمع في هذه الآية جميع الأحوال التي يضبط بها الوصفُ الحيوانَ ؛ فإن الحيوان عند البيع والإجارة وسائر وجوه

(١) نقد الشعر: ، صـ٤١ .
(٢) تاريخ آداب العرب : للرافعي (٨١/٣) .
(٣) سورة البقرة : من الآية رقم ٦٨.
(٤) سورة البقرة : من الآية رقم ٦٩.
(٥) سورة البقرة : من الآية رقم ٧١ .

التمليكات يُحتاج فيه إلى معرفة سنّه ، ولوْنه ، وعمله ، ثم يفتقر فيه إلى معرفة عيوبه ، فنفى الله ــ سبحانه وتعالى ــ عن تلك البقرة كل عيْب بقوله : (لا شية فيها) ، فجمع في هذه الآية جميع وجوه الوصف ، فإنه في الأول وصف سنّها ، وفي الثاني وصف لونها ، وفي الثالث وصف خلقها وعملها ... ومن هذا البـــاب في القرآن كثير لا يُحصى ، وكذلك في السنّة النبويّة ، وكذلك في الشِّعر...".(١)

رابعاً : الفَرق بيْن الوصف والتّشبيه :

فرّق ابنُ رشيق في كتابه (العمدة) بيْن مصطلحي الوصف والتشبيه ، فقال : " الشعر إلّا أقلّه عائد إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه ، وهو مناسب للتشبيه ، مشتمل عليه ، وليس به ؛ لأنه كثيرًا ما يأتي فـــي أضـــعافه ، والفرْق بين الوصف والتشبيه أن هذا إخبار عن حقيقة الشيء ، وأن ذلك مجـــاز وتمثيل " . (٢)

وذكَر ابن القيّم : " أن الوصف قريب من التشبيه، إلّا أنَّ الفرق بينهمـــا أن التشبيه مجاز ، والوصف راجع إلى حقيقة الشيء وذاته " . (٣)

ويقول نجم الدين بن الأثير : " فالوصف تارة يطلق ويُراد به الخصـــوص ، وتارة يُراد به العموم ، فأما إذا ورد على وجه العموم فإنه يتناول جميع المعـــاني النظمية والنثرية حتى القصص والأخبار ، فعلى هذا يكون المدح وصفًا للمدوح ، والهجاء وصفًا للمهجوّ ، والافتخار يكون وصفًا للمفتخر ، والرِّثاء يكون وصـــفًا للميت . والتشبيه وصف الشيء بأنه يشبه شيئًا آخر ... ، وإذا ورد على وجـــه

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : لابن القيّم الجوزية ، مطبعـــة الســـعادة ، مصر ، ط (أولى) ، ١٣٢٧هـــ ، صـــ١٨٩ ، ١٩٠.

(٢) العمدة (٢/٢٩٤) .

(٣) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، صـــ١٨٧ .

الخصوص فإنه يكون ذِكر الشيء وما فيه من الهيئات الخاصّة به من غير تعرّض للموصوف بخلاف التشبيه فإنه ذِكر وصف الشيء بأحواله وهيئاته التي يشارك فيها غيره ؛ فقد صارت المشاركة فرقًا ، وإذا أتى الشاعر بشيءٍ من الوصف أو التشبيه فينبغي له أن يتوخى فيهما مطابقة الموجود ، ويحذر من مجاوزة الحدّ ، وليتخيّل تلخيص المعاني في ذهنه ، وإبرازها في صفات التكميل " . (١)

وقال بعض النقاد : " ولا ريْب أن الوصف الحسّي أبلغ وأجْود وأنْدر ، وأكثر صعوبة من الوصف الخيالي ، وبما أن الوصف هو أهم أسلوب من أساليب التعبير القديمة عند العرب القدماء ، فقد جاءت أوصافهم حسّيّة ماديّة بعيدة كل البُعد عن التجريد والخيال ، وهي بالتالي نسخة مطابقة للواقع والحقيقة " . (٢)

(إذن) : نفهم من ذلك أن "الوصف" انتقال من عالم المعقولات إلى عالم المحسوسات ؛ فإنه وصف حسّي يعتمد على تصوير الموصوف كما يراه الواصف وانتقال الصورة الوصفية كما هي بحقيقتها وذاتها بعيدًا عن الوهم والتخييل والمجاز ، بخلاف "التشبيه" ؛ فإنه قائم على التمثيل ؛ لتقريب الصورة إلى ذهن المتلقي وإبرازها في صورة مجازيّه يحاول المتكلم الوصول إليها ــ غالبًا عن طريق الذاكرة أو الخاطرة أو الفهم الذي استوعبه ذهنه الخاص ــ ، ولذلك يقول الإمام عبدالقاهر الجُرجاني متحدثًا عن التشبيه والتمثيل وتأثيرهما : " ... وهو يُريك للمعاني الممثَّلة بالأوْهام شبهًا في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة ،

---

(١) جوهر الكنز ــ تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة : نجم الدين بن الأثير الحلبي تحقيق / د. محمد زغلول سلام ، ط ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، بدون تاريخ ، صـ٧٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، ط(٢) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٩ (٨١/١) .

ويُنطق لك الأخرس ، ويُعطيك البيان من الأعجم ، ويُريك الحياة في الجماد ، ويُريك التئام عيْن الأضداد فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين ... " . (١)

كما أن للوصف دلالةً على " أن الألفاظ تابعة للمعاني المفردة والمركبة ... ولهذا فإنك تُطلق العبارات على وفق ما يقع في نفسك من الحقائق والمعاني من غير مخالفة " . (٢)

(١) أسرار البلاغة : للإمام عبدالقاهر الجُرجاني ، تعليق / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، نشر مكتبة الخانجي ، سنة ١٩٩١م ، ط (١) ، صـ١٣٢ .

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحي حمزة العلوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط (١) ، ١٤٢٣هـ ، (٩٨/١) .

نصّ الحديث (*)

عن أبي هريرة[1] ــ رَضيَ اللهُ عنه ــ أن رسول الله - ﷺ - قال : « إنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِن أَيْلَةَ مِن عَدَنٍ، لَهو أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ باللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِن عَدَدِ النُّجُومِ وإنِّي لأَصُدُّ النَّاسَ عنْه، كما يَصُدُّ الرَّجُلُ إبِلَ النَّاسِ عن حَوْضِهِ قالوا: يا رَسُولَ الله، أَتَعْرِفُنَا يَومَئذٍ؟ قالَ: نَعَمْ لَكُمْ سِيما ليسَتْ لأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُحَجَّلِينَ مِن أَثَرِ الوُضُوءِ » .[2]

(*) أخرجه مسلم في صحيحه ، تحقيق / محمد فؤاد عبدالباقي ، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ، كتاب (الطهارة) ، باب (استحباب إطالة الغُرّة والتحجيل في الوضوء) ، حديث رقم ٢٤٧ ، (٢١٧/١) .

(١) هو الصحابي الجليل عبدالرحمن بن صخر الدوسي ، الملقَّب بأبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث ورواية له ، نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية ، قدم المدينة ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بخيْبر ، أسلم سنة ٧هـ ، ولزم صحبة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فروى عنه ٥٣٧٤ حديثًا ، وولي إمرة المدينة مدّة ، وكان أكثر مقامه بالمدينة ، دعا له النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأن يحبّبه إلى المؤمنين ، وسكن الصُّفّة ــ رضى الله عنه ــ حتى توفي بالمدينة وهو ابن ثمان وسبعين (رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين) ــ ظ/ الأعلام : للزركلي ، دار العلم للملايين ، ط١٥، ٢٠٠٢م ، (٣٠٨/٣)، ظ/ الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حَجَر العَسْقلاني ، تحقيق / عادل أحمد عبدالموجود، و/ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط. أولى . ١٤١٥هـ ، (٣٥٤/٧).

(٢) المفردات اللغوية : (حوض) : الحوض مجتمع الماء ، والجمع أحواض وحياض ، وحوض الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ معروف ، الذي يسقي منه أمته يوم القيامة . (لسان العرب / لابن منظور ، ٧١٥/١١) .

المعنى العام للحديث

يصف النبي - ﷺ -في هذا الحديث الشريف حوْضه المبارك وصْفًا رائعًا في دِّقةٍ من الترتيب وغايةٍ في الإحكام من خلال جوانب عديدة ، وهي المسافة (أبعد من أيْلَة من عَدَن) ، ثم جانب اللون (لهو أشدّ بياضًا من الثلج) ، ثم جانب التذوق والطَّعْم (أحْلى من العسل باللبن) ، ثم جانب التعدد والكثرة في آنيته

=(أيْلَة) : بفتح اللام ، مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام ، وقيل : هي آخر الحجاز وأول الشام ، وقيل : هي مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير (معجم البلدان : ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ط. ثانية ، ١٩٩٥ ، ٢٩٢/١) .

(عَدَن) : بالتحريك ، مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، (المصدر السابق ،٨٩/٤).

ــ (أصدّ) : الصدّ الإعراض والصّدوف ، ويُقال : صدّه عن الأمر : منعه وصرفه عنه بقوّة قال الله (عزّ وجلّ) : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾سورة النمل ، من الآية رقم ٤٣ (لسان العرب :٢٤٥/٣) .

= (السِّيما) : العلامة . (المصدر السابق ٣١٢/١٢) .

ــ (تردون) : من ورَد مكان كذا وماء كذا : إذا أشرف عليه ، وكلمة "تردون عليّ" أيْ عَلا قِرْنه واستعلاه . (السابق ٤٥٧/٣) .

ــ(غُرًّا) : الغُرّة : بياض وجه الفرس ، ويُقال : غرّة الرجل وجهه ، وقيل : طلعته ووجهه وكل شيء بدا لك من ضوءٍ أو صبحٍ فقد بدت لك غرّته ، ووجه غرير : حَسَن (السابق ١٦/٥) .

ــ التحجيل) : من تحجيل الفرس ، وهو بياض لطيف بأرساغه (مقاييس اللغة : لابن فارس ، تحقيق/عبدالسلام محمد هارون ، دار الفكر ، طبعة سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، (١٤٠/٢) .

(ولآنيته أكثر من عدد النجوم) ، وكلها عناصر من الطبيعة الصامتة الخلّابة التي تشير إلى التغيّر والتشكّل والوضوح .

فالحديث هنا من جملة الأحاديث المُخبرة عن أمرٍ غيبيّ لا نعرف عنه في دنيانا إلَّا ما أوقفنا الله ثم رسوله ﷺ .

ثمَّ يأتي جانب الصدّ ، وهو منع النبي - ﷺ - فريقًا من الناس لا يستحقون الورود على حوْضه الشريف ؛ لأنهم بدّلوا أو غيّروا ما كان عليه رسول الله - ﷺ والصحابة ــ رضي الله عنهم ــ كما تقول الكتب وتكشف عنه الدراسة التحليلية ــإن شاء الله تعالى .

ثم يأتي النبي - ﷺ ــ في آخر الحديث يطمئن المؤمنين من أُمَّته على ما هُمْ عليه من إيمان بالله ورسوله ، وتصديق بكل ما جاء به - ﷺ - من عند ربه ــ جلّ وعلا ــ ، وأنهم مُعلَّمون يوم القيامة بسيما وعلامة ــ يعرفهم بها ــ لم تكن موجودة في أُمَّةٍ من الأمم الأخرى ، وهذه العلامة هي البياض الناصع والنور الكائن على وجوههم من أثر الوضوء ، واجعلنا منهم يارب العالمين، آمين .

التحليل البلاغي

الجانب الأول: الأسرار البلاغية في وصف مسافة حوض النبي ﷺ :

إن أوّل ما بدأ به النبي - ﷺ - حديثه الشريف هو التوكيد بحرف (إنَّ) الثقيلة في قوله : " إنَّ حوضي ..." ، مما يدّل على أن الأمر مهم وذو بال ، وذلك عندما وصف الحوض بأنه "أبْعدُ من أيْلَة من عدن" ، ودخول "إنَّ" على هذا الوصف عن طريق صيغة التفضيل "أبْعَدُ" دلّ على معنى التحقيق والثبوت في بُعديّة هذا الحوض النبويّ في حجمه ومسافته ، فضلاً عمّا دلّتْ عليه صيغة التفضيل من

المبالغة والزيادة في الوصف ، والمراد : قدْر المكان وعِظَمِهِ وشرف الانتساب إليه .

وقوله : "حوْضي" تصريح بلفظ الحوض على سبيل التنويه والتشريف ، وأنه محلّ عناية من النبي - ﷺ - خصوصًا بعد إضافة الحوض إلى نفسه ــ ﷺ ــ وهي إضافة تعظيم لقدْر وشأن المضاف إليه . وفي هذه الإضافة سرّ آخر ، وهو تأكيد النسْبة إلى هذا المحلّ "الحوض" وإفادة الاختصاص ، وأنه عطاء مميّز من الله ــ تعالى ــ لرسوله - ﷺ - لم يعطه لأحدٍ من الأنبياء غيره .

أما قوله ــ ﷺ ــ : " أبْعَدُ من أيْلَة من عَدَن " فمعناه تحديد المسافة للحوض وتعريف بحجمه على سبيل التمثيل من خلال هذيْن الموضعيْن "أيْلَة وعدَن" ، وقد يكون الأمر على حقيقته ، وقد يكون على المجاز ــ كما سيأتي ــ ، والحرف "مِنْ" هنا معناه راجع إلى ابتداء الغاية ، كقولك : سِرْتُ من البصْرة ، وكوْن مجيئها في بداية الحديث يُنبئ عن دلالة لغويّة :

« كثرة دورانها في الكلام ، وسعة تصرّفها ، ومعانيها التي تُعرف بها الغاية من الكلام ، وإنْ تعدّدت فمتلاحمة » [1] هذه هي "من" الأولى ، أما الثانية ــ كما أفهم من السياق ــ فإمَّا أن تكون بمعنى "إلى" أي : مِنْ أيْلَة إلى عَدَن ، وإما أن تكون مزيدة للتوكيد فيكون التقدير : أبْعَد من أيلة وعدَن ؛ « لأنهما من المشترك اللفظيّ في الجملة ، مما يساعد على توليد معانٍ كثيرة تتلوّن تبعًا لطبيعة استعمال المفردة داخل النصّ ، وما يحيط بها من ظروف ، والفاصل المعين على تحديد المعنى الدقيق وطبيعته هو السِّياق؛ فهو يمثل صمام الأمان

(١) شرح المفصل : لابن يعيش النحوي ، عالم الكتب ، بيروت ، بدون تاريخ ، (١٠/٨) .

للمعنى ، ولوْلاه لكان التشابه الموجود في أشكال الكلمات المشتركة يولّد لبْسًا كبيرًا بين مفردات اللغة » . (١)

وقيل : « إن تكرّرتْ "مِنْ" في الجملة مرتين فالأولى تكون للابتداء ، والثانية توكيدًا لها ؛ لتفيد أن ما بعد ذلك أشدّ » . (٢)

وهذا معناه أن الموضع الأول أفاد بداية مسافة الحوض ، وأن بدايته منه ، ثم تكون النهاية في الموضع الثاني ؛ ليكون أشمل وأعمّ في المسافة من أولها إلى آخرها . ويحتمل أن يكون الوصف في الموضعين على سبيل المبالغة وليس على سبيل تحديد المسافة أو حجم جهاتها ، بمعنى أنه لا يستطيع أحد أن يُدرك كُنْه وحقيقة حجم الحوض ومسافته (بُعدًا وقُربًا) ، وإنما جاء الموضعان على سبيل التمثيل والتقريب ، كما في قوله ــ تعالى ــ ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾(٣) ، « فالآية فيها دلالة على أن ترتب الأشياء على أمثالها من أكبر مظاهر الحكمة وأعلى درجات الإيمان ، وأن وَصْف الجنة في هذه الآية للترغيب ... ، ووصف الجنة بأن عرضها السموات والأرض على طريقة التشبيه البليغ ....، والعرض في كلام العرب يطلق على ما يقابل الطول ، وليس هو المراد ، ويطلق على الاتساع؛ لأن الشيء العريض هو الواسع في العرف ، بخلاف الطويل غير العريض فهو ضيّق، وذكر السموات

---

(١) دور الكلمة في اللغة : ستيفن أولمان ، ترجمة د/ كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب ، الطبعة العاشرة ، ١٩٨٦م ، صـ٤١ .

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : جمال الدين بن هشام الأنصاري ، تحقيق / د. مازن المبارك ، و/محمد علي حمدالله ، دار الفكر ، بيروت ، طبعة خامسة ، ١٩٧٩م ، صـ٤٢٣.

(٣) سورة آل عمران : من الآية رقم ١٣٣ .

والأرض جارٍ على طريقة العرب في تمثيل شدّة الاتساع ، وليس المراد حقيقة عرض السموات والأرض ... » . (١)

ونفهم من ذلك أن مجيء الموضعيْن في الحديث دلالة على الترغيب في استقامة الأمّة على هدْيه ــ ﷺ - ؛ لتكون العاقبة في شرف الورود على الحوض وفي الوقت نفْسه تحسّ وتشعر بمعنى الترهيب من مخالفة النبي - ﷺ - ؛ لأن من خالف أو غيَّر أو بدّل شيئًا مما كان عليه رسول الله - ﷺ - فقد حُرم الخير كله ومن ثمَّ تكون دلالة البُعد في الحوض "من أيْلَة إلى عَدن" دلالة على السعَة في الأجر، والكثرة في الثواب، وامتداد العطاء ، والله أعلم.

وأما اختيار النبي - ﷺ - لهذيْن المكانيْن دون غيرهما فذلك راجع إلى المعنى أو الدلالة اللغويَّة المفهومة مما تشير إليه بعض المعاجم ، مثل: (معجم البلدان) ، حيث قيل : «أيْلَة مدينة جليلة بها بُرد النبي ــ ﷺ - وكان قد وهبه ليوحنَّة بن رؤبة لما سار إليه إلى تبوك ؛ ليصالحه على الجزْية» . (٢) وفي ذلك إشارة إلى بَرَكة المكان ؛ لوجود بُرد النبي ــ ﷺ - فيه ، فالمقام والإقامة فيه مُباركان ــ بإذن الله تعالى ــ ، وفي ذلك دلالة على بَرَكة الحوض الشريف والرضا الكامل على من يَردُ عليه ، وأن حلول وحصول بَركته من بركة هذا الحوض؛ جزاءً لهم من الله ، وعطيّة من النبي - ﷺ - ومثل هذه الدلالة نجدها

(١) التحرير و التنوير : محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، سنة ١٩٨٤م ، (٨٩,٨٨/٤) .

(٢) معجم البلدان: ياقوت الحموي (٢٩٢/١) .

في لسان العرب ، حيث قيل : « أيْلَة قرية عربيَّة ، وسميتْ أيْلَة ؛ لأن أهلها يؤولون إليها ؛ لبَركتها » . (١)

أما (عَدَن) فهي مشتقة من كلمة "عدنان" ومنهم النبي - ﷺ - ، فكأن في ذِكر المكان إشارة إلى نسْبة الحوض إلى الحبيب - ﷺ - ، فضلاً عن البَركة الحاصلة من هذه النسبة وهذا الاختصاص ، ولذلك قيل : " عدَن جنوبية تهامية ، وهو أقدم أسواق العرب "(٢) ، وفي ذلك دليل على أن هذا الموضع لا يخرج عن كوْنه عربيًّا أصيلاً ، فضلاً عن كونه أقدم أسواق العرب ــ كما قيل ــ ، وهذا معناه أنه موضع أُلْفَةٍ وَوَحدة للصف وإقام العدْل بيْن الناس ، كما كانت عادة العرب ــ قديمًا ــ خاصة الشعراء منهم ؛ ليتعرّف الناس على جيدهم من رديئهم من قبيحهم وهكذا ، ومِنْ ثمَّ نجد لهذا المعنى دلالة أخرى من لفظ "عدن" في الحديث ، وهي أن مكان الحوص سيكون النقطة المركزيَّة والفاصلة بيْن الفريقيْن: الفريق الذي يناديه رسول الله - ﷺ - ليدخل الحوض ويَرِد على مَائِه وينهل من بَرَكته ، والفريق الآخر الذي يصدّه النبي - ﷺ - ويمنعه من الورود ، فكان هذا تمهيدًا وتهيئةً لمراد النبي - ﷺ - بعد ذلك في الحديث، وهو قوله : « وإنّي لأصدّ الناسَ عنه كما يصدّ الرجل إبل الناس عن حوضه » فكان هذا القول هو واسطة العقد في الحديث ، وجوهر مقصد النبي ــ ﷺ -منه .

ومما يشير إلى اصطفاء هذا الموضع ، « أنه مكان تلزمُ الإبلُ فيه مكانها فتألفه ولا تبرحه ، وهو المكان الذي يثبت فيه الناسُ ؛ لأن أهلَه يقيمون فيه ، ولا يتحوّلون عنه شتاءً ولا صيْفًا . وقيل : عدَن اسم جامع لبُطنان الأودية ، وهي

(١) لسان العرب : (٧١٥/١١) .

(٢) معجم البلدان : (٨٩/٤) .

المواضع التي يسترْيض فيها ماء السَّيْل فيُكرم نباتُها » . [1] ، وفي ذلك إيحاءٌ بالاستقرار في المكان، والاطمئنان، وعدم التحول عنه ــ زمانًا ومكانًا ــ مما يفيد إكرام النبي ــ ﷺ - لأمّته على الدوام ، وأنهم مستحقون بفضل الله ــ تعالى ــ شفاعة النبي العدنان - ﷺ -لهذا المكان وهذه المكانة .

الجانب الثاني: الأسرار البلاغية في وصف لَوْن حوض النبي – ﷺ-:

يصف لنا النبي ــ ﷺ ــ لوْن حوضه الشريف فيقول : « لهو أشدّ بياضًا من الثلج » واللام في "لهو" للتوكيد والتحقيق ، وجاءت بدون ذِكر حرف العطف ؛ « لأن المضمر لا تدخل عليه الواو ؛ لأن الإضمار يردّ الأشياء إلى أصولها ... ولإمكان عطفها على بعض ما في نفْسه » . [2] وضمير الفصل "هو" هنا أفاد القصر من جهتيْن : من جهة دخول اللام عليه ؛ لزيادة التقوية والتأكيد ، ثم من جهة الاختصاص في اللون وما بعده من أوصاف ، أي كأن هذا اللون وهذا الطَّعْم وغيره مما لا تعلمونه أو تحسّونه في الدنيا ، أي: هو حوض ذو لون خاص ، ذو مذاق خاص ، ذو آنية خاصّة وهكذا ؛ دلالةً على المزيّة والتفرّد والتميّز في الأجْر من أول الأمر ، وفي ذلك حث على الترغيب في عمل الطاعات، كما أن كل كلمة وكل جملة في الحديث دالة على الترغيب ومنفّرة من الترهيب، والحديث برمّته قائم على الثواب والعقاب وآلية وأهلية كل منهما من حيث الاستحقاق والجزاء ، وفي ذلك دليل على علّة البدء بالضمير المنفصل ، « وهو الإشارة إلى نوع الخبر (وهو هنا المدح) ، حيث يتنبّه الفطن من فاتحة الكلام إلى خاتمته ، ويدرك ما

---

(١) لسان العرب : (٢٧٩/١٣) بتصرّف يسير .

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني : أبو محمد بدر الدين المرادي ، تحقيق / فخر الدين قباوة ، د/ أ . نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط . أولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، صـ١٥٤,١٥٥ .

تومئ إليه من المقاصد » . [١] وفي ذلك تعريض بالتعظيم لشأن هذا الخبر ومنزلته في النفوس، أي: أن هذا الضمير مع كونه يشير إلى أن الخبر المبني عليه من جنس الرفعة يعرّض بتعظيم صفةٍ هي أول صفة محسوسة في جانب الحوض النبويّ وهي البياض الناصع ذو البريق واللمعان المفهوم من قوله : " أشدّ بياضًا من الثلج " .

كما أنك تشمّ رائحة القَسَم ــ أيضًا ــ في لام "لهو" فضلاً عن إفادتها التوكيد مما يدلّ على أهمية الحوض والتنبه إلى قيمته ومكانته ، والتنويه بشأنه ، والآليات التي تستوجب الأسباب الموصّلة إلى درجته ، "وهذه اللام لشدّة توكيدها وتحقيقها ما تدخل عليه يقدّر بعض الناس لها قسمًا ، فيقول : هي لام القسَم ، مثل : لزيدٌ قائمٌ ، أي: والله لزيدٌ قائمٌ ، فأضمر " . [٢]

وقيل : " هي لام الابتداء ، كما في قوله ــ تعالى ــ ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٣] ، وهي تدخل على الابتداء والخبر مؤكّدة ومانعة ما قبلها من تخطيها إلى ما بعدها " . [٤]

وهذه الجملة التي صدّر بها النبي - ﷺ -حديثه الشريف نراها قد فُصلت عمّا قبلها وبدأت باللام مباشرة ، وهذا لسرٍّ بلاغيّ هو "كمال الانقطاع" بخلاف الجمل بعدها فجاءت موصولة بالواو "وأحلى ... ، ولآنيته ، ... وإني لأصدّ ...

---

(١) علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع ، تأليف / أحمد مصطفى المراغي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣، صـ١١٧ ، بتصرّف .

(٢) اللامات : لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق / مازن بن المبارك ، دار الفكر ، دمشق، ط ثانية ، ١٩٨٥م ، صـ٧٨.

(٣) سورة آل عمران : من الآية رقم ١٥٧ .

(٤) اللامات : للزجاجي ، صـ٧٨ .

" وذلك لأن الفصْل جاء بين جملتيْن اتفقتا خبرًا " إن حوضي ... ، لهو أشدّ .. " فلم يكن هناك رابط بينهما ، فجاءت الأولى إخبارًا بالبُعد في المسافة ، وجاءت الثانية وصفًا للحوض بالبياض الشديد الناصع ، وكأن النبي - ﷺ -استأنف جملة الوصف "لهو أشدّ بياضًا من الثلج" ؛ إذ لا يلزم من ثبوت أن الحوض واسع وكبير كونه شديد البياض ، فهذا وصف وذاك وصف آخر .

كما جاءت صيغة التفضيل "أشدّ" ؛ للمبالغة في وصف الماء بالبياض ، وكلمة "بياضًا" تمييز دلّ على شدّة لمعان الماء وبريقه ونقائه وصفائه.

وفي البدء بهذا اللون الأبيض اللامع ــ خصوصًا وأنه أشدّ بياضًا من الثلج ــ دلالة على التفاؤل والبهجة والسرور ، وإشارة إلى الوضوح والتميّز في المكان والمكانة والعطاء ، وكأن مقصد النبي - ﷺ- من هذه الجملة هو تمييز الحوض وشرف الانتساب إليه ، كما في قول القائل :

ومجالسُ بيض الوجوه أعزّة حمر اللِّثات كلامهم معروف[1]

كما أن البدء بهذا اللون الأبيض (المفهوم من كلمة " بياضًا " في الحديث) فيه جذب انتباه المؤمن ؛ لزهوه وإشراقه ، وكان - ﷺ ــ يحب من الألوان الأبيض ، وقد ذكر النبي ــ ﷺ -هنا شيئًا من الألوان ؛ « لأن للألوان ــ بمدلولها العام ــ تأثيرًا لا يتوقف عند إمتاع البصر وراحة النفْس ورياضة الذوق ، بل يمتد

(١) لم أعثر على هذا البيت إلا في كتاب "الأصمعيات" : للأصمعي ، تحقيق / عبدالسلام هارون وأحمد شاكر ، ط٧ ، ١٩٩٣م ، صـ٢٢٣ .

إلى ما هو أبعد من ذلك ؛ فالألوان سلطانها الشامل على النفوس والطبائع والأمزجة ؛ فهي تسمو بأرواحنا ، وتغذي أعصابنا ، وتريح إحساسنا».[1]

كما أن اللون الأبيض في الحديث الشريف فيه دلالة على طهر الحوض ، وتنزيهه من الأمراض، وخلوّه من الآفات؛ فبياضه نوراني يغلب عليه شعاع الشمس كأن عليه الثلج يعكسه فيكون اللمعان والبريق، وفي ذلك تتميم لمعنى البياض،وإشارة إلى صفاء القلوب ونقاء سريرة من يَرِدُ عليه ــ إن شاء الله ــ .

« وهذا اللون الأبيض ــ بمدلوله الخاص ــ هو أصل الألوان ، ويرتبط في الثقافة العربية بالطهر والبراءة ، وهو لون مصاحب للنور والصفاء ، ويطلق على من يخصل خصلة حميدة ، ويُراد بالبياض طلاقة الوجه وبشره ، والأبيض علامة حُسْن المصير في الآخرة » . [2]

ويُلحظ أن قول النبي - ﷺ - : " من الثلج " جاء لبيان شدّة البياض ولمعانه كأنه محض البياض والصفاء والنقاء ، وفي ذلك دلالة ــ أيضًا ــ على جريان الماء وعذوبته وسلاسته وبرودته ، كأن من يشربه يجد فيه حلاوةً ولذّةً لم يجدها في غيره من الماء، فهو ماء خاص منقطع النظير، وهذا هو الجانب الثالث :

الجانب الثالث: الأسرار البلاغية في وصف طَعْم حوض النبي - ﷺ - :

ويتمثل هذا الجانب في قوله ــ ﷺ ــ : (وأحْلَى من العسل باللبن) ، وجاءت هذه العبارة النبوية امتدادًا لما قبلها ومعطوفة عليه عطف معنى ومناسبة وتقارب دلالة ؛ فاللبن من معطياته البياض الخالص الناصع ، والعسل من معطياته

---

(١) من بلاغة السياق القرآني في الحديث عن الألوان : د/ سرحان حسن سرحان ، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق ، العدد الحادي والثلاثون ، المجلد الثاني ، سنة ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م ، صـ١٥٥٢ .

(٢) السابق نفسه ، صـ١٥٧٣ .

البريق والصفاء واللمعان ، وفي ذلك توكيد لما ذكر في الوصف السابق ، مما يدلّ على أن هذه " الواو " هي التي جمعت وربطتْ بين الجملتيْن ؛ لمزيد اعتناء بالصفة ، وتعدّدها ، وفضلها ، ومن ثمَّ تكون الواو لمطلق الجمع غير مقيّدة بترتيب وصفٍ على وصفٍ ، أي « أنها لمطلق التشريك في الحكم ، ولا يلزم من ذلك الترتيب ؛ إذ أصل اللفظ أن يكون موازيًا للمعنى في تقديمه وتأخيره » . (١)

وأفهم من ذلك أن " الواو " وُضعت لمعنى الاجتماع « فلا تبالي بأي الأمريْن بدأت ؛ وذلك لاتِّحاد زمان وصفهما ورؤيتهما » (٢) ، وفي ذلك إشارة إلى امتزاج المؤمنين ووَحدتهم ، ووَحدة صفّهم وصفاتهم واتحاد علاماتهم في زمن واحدٍ سيكون، وهو يوم القيامة ، ومكانٍ واحدٍ، وهو اجتماعهم على الحوض .

وفي هذا الوصف ترى التعبير بصيغة أفضل التفضيل "وأحْلى" أي: وماؤه أحْلى أو طعمه أحلى أو مذاقه أحلى، بحذف الموصوف ؛ لكونه معلومًا من فحوى السياق ، أو لدلالة ما قبله عليه وهو قوله "إنَّ حوضي"، وعبَّر النبي ــ ﷺ ــ بلفظ " أَحْلى " دون نظيرها من الألفاظ كأشهى وأفضل وأطعم وألذّ ... إلخ ؛ لمناسبة السياق وتقارب المعنى والدلالة ؛ ولما عليه لفظ الحلاوة من استشعار الطعم ولذة مذاقه ، كأنه لذة تتبعها لذّة وحلاوة تتلوها حلاوة ، فكان لفظ " أحلى " أعمّ وأشمل ، وفي ذلك دلالة القدرة على التمييز الحاصل من خلط اللبن بالعسل في قوله ــ ﷺ ــ : (وأحْلى من العسل باللبن) أي كلاهما ممزوج بالآخر ؛ للحصول على تلك اللذّة المقرون معناها بـ " الباء " وهي بمعنى الإلصاق ، وفي ذلك دليل على أن في الفصل بيْن العسل واللبن بُعدًا عن المراد ، وهو الحلاوة

(١) رصف المباني في شرح حروف المعاني: للإمام أحمد بن عبدالنور المالقي ، تحقيق /أحمد محمد الخراط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، بدون تاريخ ، صـ٤١٢ .

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني : صـ١٥٩ .

المستساغة من خلطهما ببعضهما ؛ لذا جاءت كلمة " باللبن " قيْدًا في الجملة، واحترازًا من عطفهما كأن يُقال : (العسل واللبن) ــ بدون الباء ــ ولو فُعل ذلك لفات المعنى وضاع المقصود ، وهو النّفْع الحاصل من مزجهما ببعضهما ، مما لا تجد له نظيرًا في الاعتدال بيْن الطعميْن ، أي لا تستطيع أن تفرّق بينهما بحيث لا تطغى حلاوة العسل على اللبن ، ولا تطغى حموضة اللبن على العسل إذا ما فُصلا لأن العسل بطبيعته حلو ، واللبن بطبيعته حامض أو مائل إلى الحموضة قليلاً ، ومن ثمَّ لا يشعر الإنسان بحلاوتهما ولذّة طعمهما منفصليْن ، فيكون الحاصل منهما معًا ــ إذنْ ــ هو التساوي والعدْل في الحلاوة واللذّة ، كأن النبي ــ ﷺ ــ بذلك أراد أن يكسر حدّة كلٍّ منهما في إناءٍ واحدٍ ومذاقٍ واحدٍ في زمنٍ واحدٍ ؛ لذا جاء اختيار تشبيه الماء بحلاوة العسل باللبن ، وهذا من بلاغته ــ ﷺ ــ الدالة في الجملة على أنّ وجود أحدهما ، أو وجودهما منفصلين لا يُغني عن معنى وجودهما معًا في إناءٍ واحدٍ ؛ لتمام المراد والحصول على المقصود . ولعل في ذلك المعنى إشارة منه ــ ﷺ ــ إلى اتحاد المؤمنين وعلاماتهم التي يُعرفون بها يوم القيامة ، فلا تستطيع أن تفرّق بين مؤمن وآخر في الأجر والثواب ؛ لأن العطاء واحدٌ والهبة واحدة ، والله أعلم .

الجانب الرابع: الأسرار البلاغية في وصف آنية حوض النبي - ﷺ - :

ويكون هذا الجانب هو قول النبي ــ ﷺ ــ : « ولآنيته أكثر من عدد النجوم » ، وهذا وصف آخر للحوض النبويّ جاء عن طريق لام التوكيد الدالّة على الثبوت والتحقيق ، ولابدّ من ملاحظة المعطوف في الجملة ؛ « لأنه سرّ المعنى

ومغزى الكلام ، وهكذا لابدّ من إعمال الذهن في معاني الجُمل ، ومتابعة حركتها ، واتجاهاتها التي يصحّ بها الكلام » . (١)

ومن هنا يظهر لنا أن بيْن هذه الجملة وبين ما قبلها وَصْل، سرّه البلاغي (قصد التشريك في الحكم)؛ لأن التأكيد هو عيْن المؤكَّد، والصفة عيْن الموصوف، والدلالة واحدة في كلٍّ، إلا أنه اختلفت الألفاظ مع الصفات فتعدّدت ؛ لفضل اعتدادٍ بها، وتنوّع فضائلها، وتشوّقٍ لها، ومن ثمَّ أوْحى لنا هذا التعدّد في الوصف « أن هذه الواوات حيث وقعت دلّت على المغايرة والاستقلال بيْن معاني المطعوفات ، وإنْ كانت معانيها متقاربة » . (٢)

وتطبيق ذلك تجده في قوله ــ ﷺ ــ آنفًا : (أشدّ بياضًا من الثلج ، وأحْلى من العسل باللبن) ثم يُضاف إليها هذا الوصف : (ولآنيته أكثر من عدد النجوم) فهذه الجمل موصولة بواو العطف ، وقد دلت هذه الواو على ما في هذه الجمل من حقولٍ دلالية وألفاظٍ إيحائيّة متقاربة المعنى ومتناسبة في الدلالة ؛ فجميعها تصب في قالبٍ واحدٍ هو الوضوح والثبات والاستقلال في الصفة وإن كان الموصوف واحدًا ، لكنك رغم ذلك تجد التقارب الشديد في الجمع بين هذه الصفات سواء كان في اللون أو الطعم أو الكثرة ، فاللون أبيض ؛ لوضوحه وثباته ، والطعم حلو المذاق ، مذاقه فريد من نوع خاص فهو مميّز ، والكثرة كذلك فيها شيء من التميّز وهو عدد النجوم التي تشير إلى الثبات والوضوح والنور والهداية لمَن ضلَّ الطريق، وبذلك ترى أن كل هذه الحقول الدلالية في النهاية

(١) دلالات التراكيب دراسة بلاغية : د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، ط ثانية ، دار التضامن ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، صـ ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(٢) من بلاغة الدعاء في الحديث النبوي : د. سلامة جمعة داود ، رسالة دكتوراة مطبوعة ، طبعة دار الشروق ، بدون تاريخ ، (٨/٣) .

يجمعها خيط واحد في نسيج واحدٍ منظم العقد ، وهو الاستقلالية والخصوصية والمزيّة ؛ لأن كل وصف من هذه الأوصاف تشملها خصوصية معيّنة، بل ــ إن شئت ــ قل خصوصيات اجتمعت في حوض خيْر البريّة وإمام البشرية ــ ﷺ ــ وعلى قدْر الشيء المميَّز وعِظَمِه تكون درجةُ التمييز ، فما بالنا إذا كان هذا المميَّز هو هذا العطاء الإلهي الذي يحمل في جنباته صفات أخبرنا بها النبي ــ ﷺ ــ؟ ؛ لنكون جميعًا على قدْرٍ من المسئوليّة ؛ رغبةً في الحصول على معرفة ما دلنا عليه رسول الله ــ ﷺ ــ من أخبار وصفات ؛ ليكون دأب المؤمن في كل لحظة التفكّر والعظة وحساب النّفْس ؛ خوفًا من الله ، ووجلاً من ساعة العسرة حين الوقوف بين يديه ــ سبحانه ــ، فضلاً عن التشوق الجاري في النفس ؛ للحصول على ما طيَّبَ به النبي ــ ﷺ ــ خاطر المؤمن بهذه الجائزة القيّمة العظيمة التي هي مراد كل مؤمن منَّا ، وهي الورود على حوْضه الشريف – ﷺ – ، فكان جميع ما سبق من أوصافٍ إشارات إلى صرف الذهن إلى الأهمّ والنافع للأمّة، وشحذ هممهم؛ لاغتنام ذلك الأجر والعطاء.

ويقول الشيخ الدكتور / أبو موسى عن مثل هذه الواوات في الحديث : « والأصل في الواو أن تقتضي المغايرة والمناسبة ، ومقتضى المغايرة ألَّا تدخل بيْن الشيء ونفسْه ، وإذا فعلتْ ذلك أوهمتْ أنهما متغايران ، ومقتضى المناسبة ألَّا تدخل بين المتباينين ، فلا تجمع بيْن الضبّ والنون ، كما يقولون ، هكذا في المفردات ، وهكذا في الجمل » . (١)

ويُلحظ في الجمل السابقة تكرار صيغة التفضيل (أشدّ ، أحْلى ، أكثر) ؛ للدلالة على المبالغة والزيادة في الوصف ، وذلك في إطار أسلوب اشتمل على

(١) دلالات التراكيب : د. محمد أبو موسى ، صـ٢٩٤ .

كثير من العناصر الحسيّة التصويرية التي لها إيحاؤها ؛ لتوضيح المعاني والصور، وتقريرها وربطها ببعضها ربطًا قويّ الدلالة .

وفي التعبير بالمفرد في لفظ (آنية) مجاز مرسل علاقته الجزئية ؛ حيث أطلق الجزء وأراد به الكلّ وهو مجموعة الكؤوس والأباريق ، لكنه ــ ﷺ ــ عبَّر بالمفرد ؛ لبيان أنه قائم مقام الجمع ، فيأخذ الجزء حكم الكلِّ في النظر والورود والشبع ، فمن شرب بكأس واحدٍ فكأنما شرب الحوض كله وما شبع ، أي أن الشرب موصول غير مقطوع ، فكذا آنيته وكأسه متعدد، فهي كالكؤوس والأواني في تعدّدها لا تنحصر ولا تنقطع ، وهذا ما بينه رسول الله ــ ﷺ ــ وأكّده بقوله : « أكثر من عدد النجوم » ، و "من" فيه بيانيَّة؛ حيث بيّنت المبالغة في لفظ "أكثر"، وهو أن هذه الآنية وهذه الكؤوس والأباريق كثير عددها فلا تُعدّ ولا تحصر ، ولذلك جاء التمثيل والوصف بالأكثرية في عدد النجوم ؛ مبالغةً في العدد ، وفي ذلك إشارة إلى قدْر وشرف هذه الآنية التي دلّت في كثرتها (بعدد النجوم) على تزاحم المؤمنين وتلاحقهم وجوارهم ولصوقهم وتسابقهم إلى الحوض؛ لذا اهتم النبي – ﷺ– ببيان الكثرة هنا بغض النظر عن بيان الجنس، كما جاء في رواية أخرى من حديث أنسٍ – رضي الله عنه– " ... تُرى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء"[1] ، لكن مقام الحديث هنا دلَّ عليه سياقه، وهو أن المقام هنا مقام ترغيب وترهيب ، وهو مقام يستدعي الفائدة الكبرى والنفع الأعظم في معرفة كثرة آنية الحوض، تلكم الكثرة التي يندفع بها المؤمنون ويكثرون على حوضه الشريف – ﷺ –، وفي ذلك دليل على تفاعل الشاربين، وإثارة الحنين والشوق في نفوسهم، ومزيد اشتهائهم أن يكونوا من

(١) صحيح مسلم (١٨٠١/٤)، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا وصفاته.

هؤلاء الشاربين، وكأن هذه الكثرة جاءت تهييجًا وإلهابًا في نفس كل مؤمن؛ حتى يتزود بهذا الفضل بكل ما يؤهله إليه .

وفي اختيار النبي ــ ﷺ ــ هنا للفظ " النجوم " إيحاءات ودلالات لا تخرج بعيدًا عن دلالات الأوصاف السابقة للحوض ؛ ليكون التناسب في المعاني والتقارب في الدلالات، وعلى ذلك تجد دلالة الوضوح والاهتداء ظاهرة من خلال لمعان وبريق الماء الأبيض وهو أشدّ بياضًا من الثلج، يظهر كلمعان وبريق النجوم في السماء، فيكون النجم كالنور الواضح الساطع والدليل الذي يهدي المؤمن إلى طريق الحوض، والمراد من الوصف النبوي : النور واللمعان والإشراق والتلألؤ والكَثْرة.

وقد يُراد بالنجوم هنا المسافة البعيدة ، وهو لفظ بليغ جدا ــ ما أبلَغَهُ ــ في تحديد أسلوب العيْن في الرؤية حين تنظر إلى السماء العالية ذات النجوم الصافية، والمراد هو المعنى المكنىَّ عنه في كلمة " النجوم " وهو الاتساع لدرجة أنك لا تستطيع رصد المسافة بالرؤية المجردة بالعيْن ،

وهذا إعجاز بلاغي في الوقوف على أسرار هذا الحوض وصفاته والوصول إلى كُنه هذا الترتيب المعجز الذي وصفه به رسول الله ــ ﷺ ــ .

ونأخذ من تلك المسافة البعيدة مغزًى آخر وهو أن الحوض من اتساعه وكثرة مسافته إلّا أن ماءَه قريب لمن أراد البلوغ والوصول إليه ، فماؤه كالنجوم تمامًا في بُعدها عن ناظريها ، إلّا أنها تُعطي بشعاعها وكمية ضوئها المنبعث أملاً وهداية لمن أراد الله له الاهتداء (بفضله ورحمته) ، ولن يكون ذلك إلّا للمؤمن ولعل تلك النجوم إشارة إلى النور الكائن على وجوه المؤمنين يوم القيامة بسبب وضوئهم ، وأن هذا الوضوء والشعاع الضوئي النوراني الربّاني أصبح قريبًا منهم بل ملتصقًا ممتزجًا بوجوههم لا يفارقهم .

ثم دلّت خصوصية النجوم على نحو ما كشف عنه العلم الحديث؛ فقد اكتشفوا أن النجوم « أطول أعمارًا وأكثر أعدادًا من المخلوقات الأخرى، فقد قيل إنها تبقى ملايين بل مليارات السنين، وقيل إنها تتألف من عدد من المجرات يقدر بحوالي مائة مليار مجرة، مقسمة قسمين: قزمًا وعملاقة، فالمجرة القزم تتألف من عشرة ملايين نجم، والعملاقة يصل تعدادها إلى عشرة آلاف نجم، وهي ليست ثابتة العدد وإنما تتزايد باستمرار»(١)، وهذا الكلام الجيد من علمائنا يشير إلى ميزة النجوم ، وأن لها فضل اختصاص، مما يدل في الحديث الشريف على ميزة الآنية وانفرادها بمزيد خصوصية لم تكن في غيرها .

وربما دلّت النجوم ــ أيضًا ــ على معنى الفخر والسموّ ؛ لأن هذه الجائزة وهذا العطاء للمؤمنين يوم القيامة مدعاة للفخر والسموّ بهذه المنزلة ، فكان بُعد النجوم دليلاً على ارتقاء المؤمن وارتفاع منزلته وبُعد مكانته ورفعة شأنه بين الخلائق يوم القيامة .

كما أن لهذه " النجوم " أثرًا عظيمًا ودورًا كبيرًا في الكشف عن الدلالات النفسيّة ، وكأنها رمز إيحائي بالراحة وعلوّ الهمّة، وتحديد المصير، والاهتداء إليه بسهولة ، وهذا ما يتراءى للمؤمن حين ينظر إلى النجوم ؛ لما لها من خصائص جمالية وفكرية وتأملية ترتبط بواقع الآنية التي يُشرب فيها من حوض رسول الله ــ ﷺ ــ وهي في حقيقتها مجموعة من الأواني والكؤوس ، يجمعهما (الأواني والنجوم) إحساس واحد هو الإحساس بدقة الصنع وجلال التكوين ، أي أنهما مع كثرتهما وتفرقهما إلّا إنك ترى ترتيبًا في الصُّنع ، وجمالاً في المنظر ،

(١) مظاهر الطبيعة في الصحيحين دراسة بلاغية، مخطوط دكتوراة، صلاح حبيب سليمان، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود جامعة الأزهر، ٢٠٠٥م، صـ٢٢٥. .

وإحكامًا في الجوار، ونورًا في العطاء ، ولذّة في النظر متجددة من حين إلى آخر .

إذن : نجد اختصاصه – ﷺ – النجوم بالذكر هنا دون غيرها أخدم للمقام وأوْلى بالسياق؛ لأن ذكر النجوم في مقام ذِكرْ عدد آنية الحوض الشريف قد أصاب كبد المقام، فضلًا عن الوشائج التي تربط بينهما من الإشراق واللمعان والتلألؤ والضياء ، وفي ذلك دليل على التميز في الهدية (الحوض)، والمُهدَى إليه (النبي – ﷺ –)، والواردين على حوضه الشريف – ﷺ –، وهم المؤمنون الذين لا يفتأ لسان حالهم يردّد: (اللهم أوردنا حوضه ولا تفتنا بعده، واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا).

الجانب الخامس: الأسرار البلاغية في وصف موقفه – ﷺ – ممن يَرِدُون على حوضه الشريف، وعلاماتهم :

وفي هذا الجانب يستأنف النبي ــ ﷺ ــ حديثه بعد وصفه للحوض قائلاً : « وإنّي لأصُدّ الناس عنه كما يصدّ الرجل إبل الناس عن حوْضه » ، وهذه الواو في بداية الجملة ــ على حسب ما دلَّ عليها السياق ــ هي واو الاستئناف اللفظي وليس المعنوي ؛ إذ إنَّ المعنى مبني على ما قبله من حيث الترغيب والترهيب ، وفي ذلك إشعار بأن هذه الواو هي المرتبة للجزاء، وكأن المعنى : يفرح المؤمن يوم القيامة بصحبة النبي ــ ﷺ ــ والورود على حوْضه الشريف ، أما غير المؤمن فيصدّه النبي ــ ﷺ ــ ويمنعه من الورود .

ومن ثمَّ لم يكن هناك مانع من أن تكون هذه " الواو " للعطف ــ أيضًا ــ ؛ كشفًا عن المقصد وتحديد المراد وتحريره من الجملة ، وكأن النبي ــ ﷺ ــ أراد أن يفهمنا ــ من خلال هذه الجملة ــ مبدأ الثواب والعقاب في الإسلام ، وفي ذلك تعريض بالجزاء بالنسبة للفريقيْن ، فالثواب لمن اتبع النبي ــ ﷺ ــ وكانوا من

أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى ، والعقاب لمن خالف المنهج وأعرض عنه وبدّله ، وفي كلٍّ معنى الترغيب في فعل الخيرات وترك المنكرات ، وهذا هو مراد النبي ــ ﷺ ــ ؛ حيث إنّ كل صفة في الحديث كاشفة ومنبّهة ومنبئة عن هذا الغرض الكليّ ، وكأنّ الحديث برمّته يحتاج فيه المؤمن إلى قراءةٍ متأنية تثبّته من الله ــ تعالى ــ وتعينه على طاعته وطاعة نبيه ومصطفاه ؛ حتى يختم الله له بالخير ، قال ــ ﷺ ــ : « إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا استعمله ، قيل : كيف يستعمله ؟ قال : يوفقه لعملٍ صالحٍ قبل الموت».(١)

ثم تأمل عبارته ــ ﷺ ــ في حديث الحوض : " وإنّي لأصدّ " ، وهي عبارة ــ كما تلحظ ــ تجمع بيْن توكيدين : (إنَّ) بنون التوكيد الثقيلة المشعرة بثقل الأمر وخطورة الموقف وشدّته وأهميته في النفوس ، ثم (اللام) في كلمة " لأصدّ " الدالة على التوكيد والمبالغة في الصدّ والوعيد الشديد ، وتأمّل مجيء الفعل " أصدّ " بصيغة المضارع الدال على الاستمرار والتجدّد في الحدث مصحوبًا بحرف (الصّاد) القوي بجرسه ونبرته وصوته، الموحي بالقوّة والديمومة والضجيج ، وكأن هذا الحرف وما جسّده من صورة نزل كصاعقةٍ عنيفة الأثر ، وفي ذلك توجيه للمؤمنين إلى أن يسلكوا طريقًا واحدًا لا ينبغي لهم أن يحيدوا عنه أو يميلوا، وهذا الطريق هو طريق الحق والهُدَى والنور والإيمان والصدق بكل ما جاء به نبيّنا ــ ﷺ ــ .

---

(١) أخرجه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب : تحقيق / إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ، ١٤١٧هـ ، (١٢٦/٤) برقم : (٥٠٨٦) ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، كتاب (التوبة والزهد) ، باب (الترغيب في التوبة والمبادرة بها) .

وفي اختيار الفعل " أصدّ " دون غيره مثل : أمنع ــ أعترض ــ أحجب ... إلخ؛ دلالة على معنى الغضب الشديد والإجهار على هؤلاء (الممنوعين عن الورود على الحوض) بالعقاب ، قال ــ تعالى ــ : ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾[1] ، وفي ذلك معنى الجلبة والضجيج والصيْحة ؛ جزاء تكذيبهم ونفاقهم ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فكان لابدّ من إقامة ثورةٍ عارمةٍ غاضبةٍ عليهم أمام الناس جهارًا ، مما يدلّ على نفرته ــ ﷺ ــ من هؤلاء وبُغضه وغضبه من صنيعهم بعده ؛ لذا جاء العقاب مناسبًا للذنب والجُرم بكل المقاييس ــ اللغويّة والدلالية والبلاغية والنفسيَّة ــ المفهومة من كلمة " أصُدّ " وما فيها من شدّة وثقل .

إذن : دلَّ مجيء اللام في أول العبارة على « الابتداء والتوكيد ؛ لأنها أكّدت مضمون الجملة قبلها ؛ ولأنها دخلت على الفعل المضارع بعد " إنَّ " الثقيلة المكسورة بالهمزة ، ودخولها على الابتداء أفادت ــ مع إفادتها توكيد النسبة وتخليص المضارع للحال ــ الفرق بين " إنْ " المخففة والثقيلة ، و" إنْ " النافية » .[2]

أما إدخال اللام في خبر " إنَّ " دون سائر أخواتها هنا ؛ « فلأن "إنَّ" داخلة على المبتدأ والخبر ، محققة له غير مزيلة لمعناه ، وهذه اللام هي لام الابتداء

---

(١) سورة الزخرف : من الآية رقم (٥٧) . ورغم أن هناك فرقًا بين " يَصُدّ ويَصِدُّ " من الناحية اللغوية ، إلّا أنهما متفقان من الناحية الدلالية والمعنوية وهي القوّة والإحكام بكل ما أوتي الإنسان من قوّةٍ ، فضلًا عن المعنى المتقارب بينهما من حيث الصيحة والاعتراض والثورة والغضب الشديد .

(٢) كتاب اللامات دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية : تحقيق / د. عبدالهادي الفضيلي ، دار القلم ، لبنان ، ط. أولى ، ١٩٨٠م ، صـ١٠٨ ، ١٠٩ بتصرّف .

الداخلة للتوكيد ، فجاز دخولها على خبر "إنَّ" وحدها ؛ لما لم تغيّر معنى الابتداء ، ولم تدخل على سائر أخواتها ؛ لأنها تغيّر معنى الابتداء ؛ لما تدخل عليْه من المعاني نحو دخول أدوات التشبيه عليها ، والاستفهام ، والتمني ، والترجي ... إلخ » . (١)

وذكَر الرّماني : « أن لام الابتداء دخلت بعد "إنّ" المؤكّدة ؛ ولأن الضمير يتصل بها على حدّ اتصاله بالفعل ، وذلك كقولك: إنّني ــ إنّي ــ إنّك ، وحينئذ يكون معناها للتوكيد والتحقيق». (٢)

أقول : إن هذا التوكيد كلّه بمعناه يشير إلى الشدّة والثقل في تحقيق العقاب والجزاء ، كما يشير إلى الشدّة والغلظة والتوكيد في الذنب والإصرار على الجرم الذي ارتكبه المخالفون في دنياهم ، وفي ذلك تلميح إلى أن الخبر المترتب عليه لام التوكيد وإنَّ الثقيلة واسمها من جنس الإذلال والعقوبة ، حتى ولو مات هؤلاء على التوحيد ؛ لأن الذين يصدّهم النبي ــ ﷺ ــ « هم أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد ، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام ، ويحتمل أن يكون كانوا في زمن النبي ــ ﷺ ــ وبعده ... ، ولا يُقطع لهؤلاء الذين يُذادون بالنار ، بل يجوز أن يُذادوا ؛ عقوبة لهم ، ثم يرحمهم الله ــ سبحانه وتعالى ــ فيدخلهم الجنة بغير عذاب » . (٣)

---

(١) كتاب اللامات : للزجاجي ، صـ٧٥ .

(٢) معاني الحروف للرماني النحوي ، تحقيق د. / عبدالفتاح إسماعيل شلبي ، دار الشروق ، ط. ثانية ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، صـ١١٠ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم : نشر دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ثانية ، ١٣٩٢هـ ، (١٣٦/٣ ، ١٣٧) .

و"أل" في كلمة (الناس) للجنس الحقيقي ؛ لتشمل كل فرْدٍ من أفراد الممنوعين عن الورود على الحوض دون استثناء .

ثم تأتي الصورة التشبيهية في قوله ــ ﷺ ــ : « كما يصدّ الرجل إبل الناس عن حوضه » ، والإتيان بهذه الصورة الوصفية المعتمدة على التشبيه هنا تأكيد للجملة قبلها (وإنّي لأصدّ ...) ، وفي الوقت نفسه تفسير لتجسيد المعنى في كلمة " أصدّ " ، حيث صورت جملة التشبيه ما كان عليه النبي ــ ﷺ ــ من معاناة ومشقة وبذل جهد ؛ لإبراز الشكل العام أو الكُليّ الذي أَوْحَى به التشبيه في عملية الصدّ .

كما يُلحظ في الجملتين الجناس الاشتقاقي بين (أصدّ ، ويصدّ) ومجيء كل من الفعلين بصيغة المضارع المستمر في تجدّد الفعل وحدوثه ، والتجانس بيْن الكلمتيْن يعمّق المعنى ويزيده دقّة ووضوحًا مع ما فيه من جمال صوتيّ ، ومعنى إيحائي ، وأسلوب رمزي ، فضلاً عما جسّده الفعلان من نبرة قويّةٍ ذات جرس موسيقيّ خلّاب أبان عن لغة الحديث ، هذه اللغة التي تحمل في طياتها كل الجُهد المبذول الذي دلت عليه صورة الصدّ المعبّرة عن خطورة الموقف وصعوبته ، وهذه الصورة فيها ما فيها من الذلّ والخزي والهوان والعار والشنار اللاحق بهؤلاء العاصين ، خصوصًا وأن كلمة " يصدّ " فيها معنى البُعد عن طريق الوصول إلى ماء الحوض مع شدّة التشوّق له والتلهف عليه ، مما يدلّ على شدّة المجازاة في العقاب ، والحرمان من الخير الكثير مع قربه منهم ونظرهم إليه .

كما أن في هذه الصورة الوصفية التشبيهية ــ أيضًا ــ إشعارًا بقوّة النبي ــ ﷺ ــ الجسديّة في الصدّ ، وهذا مفهوم من " أل " في كلمة (الرجل) ، " وهي للجنس المجازي الذي يشمل خصائص الجنس ؛ ليكون هو الكامل في هذه الصفة

على سبيل المبالغة" . [١] وكذا تُفهم القوّة الجسدية من قوله ــ ﷺ ــ بعد ذلك : " إبل الناس عن حوضه " ، وهنا ترى في كلامه ــ ﷺ ــ التعريف بالإضافة " إبل الناس ، حوضه " يتوسطهما حرف الجرّ (عن) الذي يفيد هنا المجاوزة والابتعاد ، ولذلك ناسبها مجيء الاسم المجرور " إبل " ؛ لتقاربهما في المعنى والدلالة ؛ حيث إن " الإبل " كلمة مشتقة من (أَبَل) أي اجتزأ وابتعد ، يُقال : أبل الوحشُ إذا اجتزأ بالرطب من الماء ، وأبل الرجل عن امرأته اجتزأ عنها وامتنع وابتعد[٢] ومن ثمَّ تجد في كلمة " الإبل " دلالة على الاجتزاء والغلبة والثقل[٣] ، وكأن اختيار لفظ " الإبل " دون غيره من الحيوانات جاء ليتناسب مع السياق والمعنى المقصود ؛ لأن حال هؤلاء الذين يصدّهم النبي ــ ﷺ ــ حال مذرية فيها ضلال وتحوّل عما كانوا عليه فانقلبوا إلى وحشيّة مهاجمة ومعادية كهذا الحيوان الثقيل بجسمه ووحشيته حين يتصبب عرقًا من حرّ الهواجر فتراه ينفر من شدّة العطش ، ثم يزداد نفوره وتزداد وحشيته حين يلقى من يمنعه ويحول بينه وبين الماء ، فهكذا حال العاصين ، يقول الجاحظ : « الإبل مع كثرة منافعها إلّا أنها تُذاد أحيانًا عن موردها ؛ لأنها تضل فتؤوي، وتصاب في الهواشات فتُردّ فتكون وحشيّة »[٤]، وعن نفورها وثورتها وعنفها من حرّ الهواجر يقول الشمّاخ :

خُوصَ العيونِ تَبَارَى في أزِمّتها إذا تقصّدْنَ من حَرِّ الصَّياخيدِ[٥]

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني : صـ٣٢ .

(٢) لسان العرب ، مادة " أَبَل " .

(٣) مقاييس اللغة ، مادة " أَبَل " .

(٤) الحيوان : للجاحظ ، تحقيق / محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، (١٠٢/١ ، ١٠٦) .

(٥) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ، تحقيق / صلاح الدين الهادي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ط أولى ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، البيت رقم ٧ ، بحر البسيط ، صـ١١٤ .

وكأنه ــ ﷺ ــ يصرفهم عن الحوض بكل سهم وقَوْس، والمراد بكل قوّةٍ وإصرار وعزْم ومَضاء ، والذي كشف عن هذا المعنى أكثر الإضافة في كلمتي " إبل الناس ــ حوضه " ، وفي ذلك معنى التخصيص الدال على الاختصار في الجملة ، والغرض منه : إرادة الإطلاق في الصدّ بكل ما أوتيَ من قوّة وسعة ، وللإضافة شأن عظيم في كلام العرب؛ حيث كانوا يختصرون الكلام ويعملون على تغطية بعضه ، أو حذف بعضه لأغراض في نفوسهم .(١)

ومن هنا نفهم ما تكنّه هذه الإضافة من معنى التمليك وحريّة تصرّف المالك فيما يملك ، خاصّة ما تراه في كلمة (حوضه) بإضافة الحوض إلى الضمير المتصل " الهاء " وما يفيده من معنى النسبة والاختصاص والاتصال بالمِلْك ، وهذا هو مراد النبي ــ ﷺ ــ أي إثبات ملكية هذا الحوض النبوي للمؤمنين ونفيه عن غير المؤمنين في الورود عليه ، يقول الشيخ / عبدالقاهر : « وَمِنْ شَأْنِ الإضافةِ الاختصاصُ ؛ فهي تتناول الشيء من الجهة التي تُختَصُّ منها بالمضاف إليه، فإذا قلتَ: " غُلامُ زيدٍ" تناولتِ الإضافةُ الغلامَ من الجهة التي تختص بزيدٍ وهي كونه مملوكًا »(٢) ، أي صار مملوكًا له من جهتيْن : من جهة الإضافة إليه أي نسْبته إليه واتصاله به ، ثم من جهة التخصيص الدالّ على الانفراد بالشيء وتملّكه .

---

(١) وهذا دليل على قدرة النبي – ﷺ – على تطويع العبارة وتمكنه منها ؛ ليكون الإعجاز البلاغي النبوي مظهرًا من مظاهر الإيمان به – ﷺ – وبكلّ ما جاء به ؛ وليكون هذا الإعجاز ــ أيضًا ــ حُجّة على غيره في زمانه والأزمنة اللاحقة بعده ــ ﷺ ــ .

(٢) دلائل الإعجاز : للإمام عبدالقاهر الجُرجاني، تحقيق / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدّة ، طبعة ثالثة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، صـ٣٦٢ .

ويُلحظ أن طرفي التشبيه في هذه الصورة حسّيّان، والغرض منها: الإغراق في الوصف، ومعلوم أن مثل هذا الوصف لا يليق إلَّا بالمنافقين والعاصين ومَنْ على شاكلتهم؛ لأنه لا يجوز للمؤمن أن ينساق وراء ملذاته وشهواته؛ فهو يخاف ويخشى العقوبة، وخوفه من الله -تعالى- ورسوله-ﷺ- أشدّ وأزْيَد؛ لذا تكمن القيمة البلاغية لهذه الصورة التشبيهيّة هنا في التنفير من هذه الصورة المخيفة والمنذرة بالهلاك الشديد والوعيد الأليم، والحث على نقيضه.

كما كشف لنا هذا الوصف النبويّ عن الحالة النّفسيّة المشتركة بيْن هؤلاء الذين يصدّهم النبي -ﷺ - وبيْن الإبل عن طريق هذه الأداة "الكاف" التي جسّدتْ لنا وصوّرتْ معنى الاضطراب والقلق وعدم الاستقرار، ومثل هذه الكاف التي جاءت واسطة العقد بين طرفي التشبيه هي التي كشفت عن جوهر المقصد؛ لأنها الكاف التي سمّاها كثير من أهل اللغة بـ(كاف تشبيه التنظير)؛ حيث جاءت لتوضيح الصورة وبيان المراد، وتستعمل في صياغة الجمل والتراكيب والأوصاف؛ لتنظير الشيء بالشيء ، ومن ثمَّ " فإن التشبيه في العبارة هو تشبيه تنظير، من غير اعتبار كوْن المشبه به أقوى من المشبه في وجه الشبه؛ فليس هذا بتشبيه تعليل، بل هو لمجرّد التنظير وتوضيح الصورة وبيان المراد ".[1]

ومن هنا تبدو لنا الصورة في حقيقتها مليئةً بالمتاعب والعناء المتجدّد المستمر؛ وذلك لهدف التنبيه والوقوف على هذا التشبيه الذي بدت فيه الصورة بأبشع ما يكون عليه المخالفون لأمر الله -سبحانه- وأمر نبيَّه-ﷺ- .

(١) المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية: للشاطبي، تحقيق/ د. عبدالرحمن بن سليمان العثيْمين، المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، مركز إحياء التراث الإسلامي، ط أولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، (١/١٣٥ بنتصرّف).

وفي الحقيقة تجد هذه الصورة بطرفيْها "المشبه والمشبّه به" تثير في الذهن سؤالات واستفسارات عدّة، منها: لماذا هذا التكّبدُ وهذا العناء في الصّدّ؟ ولماذا صورة الإبل دون غيرها من الحيوانات الصحراوية حتى يسوقها النبي -ﷺ- لنا هنا مثلًا للوصف؟ ولماذا كل هذه الأدوات التوكيدية والتصويرية في الوصف؟ وما علاقة هذه الصورة بما قبلها أوّل الحديث؟ وما علاقتها بما بعدها حتى نهاية الحديث؟ وكل هذه التساؤلات تجيب عنها صورة "المشبه به" لتوضّح العلّة وتبرهن الحُجة (كما يصدّ الرجل إبل الناس عن حوضه).

أما عن اختيار صورة "الإبل" في هذا الموضع فقد جاء دليلًا على أمريْن:

الأمر الأول : شهرتها في الورود على الماء المجتمع الكثير كالحوض والنهر وما أشبههما، وكان من طبيعة الرجل العربي الحرّ الثقيل الذود عن إبله، وطرد الإبل الغربية المجاورة، وكانوا يعتبرون ذلك نوعًا من السيطرة؛ حقنًا للدماء، وحفظًا لحقوقهم، وحفاظًا على أراضيهم ومراتعهم وحياضهم الخاصّة بهم، "يُقال: ذُدتُ الإبلَ أذودها ذوْدًا، إذا طردتُها وسقتها"(١)، وهذا يعني أن "الإبل" عندهم من الحيوانات التي لا تقدّر بثمنٍ في نفْس العربي الأصيل الخالص في حلّه وترحاله، في سفره وإقامته، في حربه وسلْمه؛ نظرًا لتحمّلها وشدّة بأسها، وغير ذلك مما لا نظير له في الحيوانات الأخرى.

ومن يتأمّل كلمتي "حوضي – حوضه" يجد ما بينهما من صلةٍ بصورة حيوان الإبل هنا، وكأن هذه الإضافات وهذه المؤكدات وهذه الصور جاءت؛ لتقرّب لنا حقيقة الإنسان المسلم المؤمن بربه ونبيّه -ﷺ-، ثم حقيقة المخالفين المنافقين العاصين لله ولرسوله -ﷺ- وفي ذلك دليل على أن المؤمنين هم سيدو الموقف ولهم السَّبْق في الورود على الحوض، ولا يحق لغيرهم أن يعترضوا أو

(١) لسان العرب، مادة "أبَل" .

يقفوا أمامهم؛ لأن الحوض حقهم وحصنهم الحصين، مما يدل على أن انتسابهم إلى الحوض لشرف عظيم، وأن حماية النبي -ﷺ- ودفاعه عنهم - ؛ حتى لا يتجرّأ عليهم المجترئون من أهل النفاق والمعاصي - لهو شرف كبير لا يضاهيه شرف ولا يباريه فخر، وكأن النبي -ﷺ- يضع على رؤوسهم تيجانًا يوم القيامة؛ لأنهم أصحاب إيمان وهمة وعلو، فناسب ذلك أن تكون مكانتهم بين الأمم يوم القيامة عالية وراقية، تزهو بها نفوسهم وتنير بها قلوبهم، وتشرق بها جباههم ووجوههم ، وهذا ما بيّنه النبي -ﷺ- آخر الحديث: " لكم سيما ليست لأحدٍ من الأمم ..." كما سيأتي إن شاء الله- تعالى-.

كما أنه يُلحظ في هذه الصورة وما فيها من ثقل على المخالفين أنها جاءت رمزًا وإشارة من النبي -ﷺ- إلى الدفاع عن الدين والذود عنه بكل ما أوتي المؤمن من قوّة - حسّيًّا ومعنويًّا-، والعمل على خدمة دين الله - تعالى - دائمًا وأبدًا؛ حتى لا نسمح لأصحاب البدع والأهواء بالتطاول على الإسلام والمسلمين، وأنه من يفعل ذلك ضد الإسلام وأهله يلق أثامًا، وله من الله ما يستحقّه يوم القيامة، أما من يدافع عن عرضه ودينه وحماه فله جزاء الحُسْنى ـــ بإذن الله تعالى ــ.

الأمر الثاني: استخدام النبي-ﷺ- لفظ "الإبل" عقب لفظ "الصدّ" (وكلاهما يحمل معنى الثقل والغلبة والسّيْطرة) دالّ على أن الإبل في مثل هذا الموقف تكون غائرات ثائرات هائجات، خاصّة وأنها تُمنع من الورود على الماء في وقت عصيب تشتد فيه الحرارة، وهي أحوج ما تكون في هذا التوقيت مُشتهية للماء البارد، ولكن هيهات لما تريد؛ لأنها صارت وحشيًّا، يجب مقاومتُها وصدّها؛ حتى

لا تلحق ضررًا أو أذًى بغيرها، وجاء في اللسان: "أن للإبل أوابد كأوابد الوحش، والأوابد هي التي توحشت ونفرت من الإنس". (١)

وكأن النبي -ﷺ- أراد أن يصف لنا ذل وخزي وجُبن وحقد هؤلاء المخالفين الذين تخلفوا عن رسول الله -ﷺ- وأوامره وكل ما جاء به من حقّ، ممثلًا خزيهم وعارهم وجبنهم في صورة إبل « تكون وديعة لمن يرعاها ويؤانسها، إلّا أنها شديدة الجبن، تخاف – رغم عِظم حجمها وثقلها- ... ، وأشدّ الحيوانات حقدًا، وفي طبعها الصبر والصّولة ».(٢) ، أي أنها مع شدّة بأسها وصبرها إلّا أنها ذات صوْلة وثورة وغضب، فلا مأمن ولا أمان لها، « وهذا وصف لبيان شدّة الحال التي عليها الناس، مما زاد الأمر عندهم شغفًا بالماء، وقد جاء ذلك كثيرًا في سياق الشدّة وطغيان الحرّ حتى كأن لعاب الشمس يذيب الناس».(٣)

واختيار لفظ "الإبل" في وصف الصورة التشبيهية أمر ليس بغريب عن الأعراب وأهل البادية؛ لذا جاء الوصف مناسبًا لحالهم وواقعهم، فجاءت الصورة مستمدة من واقع البيئة العربية التي يعرفها الصحابة-رضوان الله عليهم- معرفة دقيقة يشاهدونها، وهي ماثلة أمام أعينهم ليل نهار، فلا تكون غريبة عنهم، بل يألفونها وتألفهم، وهذا يجعل السامع -بدون شكٍّ- يتخيل المعنى، ثم يثبت هذا المعنى في النّفْس بصورة مباشرة، ولذلك "اعتمدت الصورة على الحسّ المباشر

(١) لسان العرب، مادة "أَبَل" .

(٢) موسوعة الحيوان (علمية – أدبيَّة- لغويّة- ثقافيّة)، إعداد/ غراتاقرة بتيان، الإشراف اللغوي: د/ إميل يعقوب، ط. أولى، الدار العربية للعلوم، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، (٩/١).

(٣) قراءة في الأدب القديم، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة ، مصر، ط. ثانية. ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، صـ٥٣ بتصرف.

الذي يدركه المُشاهد ويتابعه ويتجسم به الأشياء تجسّمًا واضحًا يخلب النّفْس". (١)

ويقول الدكتور صبّاح دراز: «إن مثل هذا الوصف لا يكون لمجّرد التصوير والخيال والرمز، وإنما هو تسخير للفن في خدمة مبادئ الدين... » (٢)

ومن ثمَّ يظهر لنا مما مضى من أوصاف للحوض حتى هذه العبارة : "وإني لأصدّ الناس..." أمور:

الأول: أن الوصف النبويّ مرتبط بعالم المحسوسات ومشاهد الطبيعة، مما يجعل الوصف وسيلة للتأثير في النفْس، والتفاعل بين الطرفيْن داخل السياق؛ لتحقيق الأثر الدينيّ والفنيّ معًا.

الثاني : تحقيق نظرية "التوافق والانسجام" بين الطبيعة والإنسان، ويتم ذلك عن طريق الصور والمؤكّدات في الجُمل؛ « لتقريب الحقائق، ووضعها أمام العقل الإنساني الذي يفسّرها وينظمها ويعطي حكمًا عليها، خاصّة وأنت ترى في الوصف حياةً وحركةً حين تبدو الطبيعة حيّةً شاخصةً بين وجدانك، كأنك تجدها شخوصًا متحرّكةً مخلوقةً لله- تعالى- محكومةً بقوانين الله ».(٣)

الثالث: وجود الصور والمؤكّدات والضمائر والصياغات في الجُمل دليل على تقريب الحقائق، واستحضار الصورة والمشهد والموقف وكأنه يحدث الآن ماثلًا بين عينيْك تراه رؤيا العيْن وتلمسه وتشعر أنك بالفعل أمام لوْحةٍ تدخل فيها بكل

---

(١) التصوير الفنّي في الحديث النبوي: د/محمد لطفي الصبّاغ، صـ ٥٨١.

(٢) ينظر: في البلاغة القرآنية: د/صبّاح عبيد دراز، مطبعة التركي بطنطا، ١٤١٨هـ،/ ١٩٩٧م، صـ١٥٩ بتصرّف.

(٣) ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم: عبدالسلام أحمد الراغب، نشر فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب ، ط. أولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، صـ١٩٩.

جوارحك إلى أقصى درجةٍ، وهذا ما فعله النبي-ﷺ- حين خاطب الصحابة -رضي الله عنهم- بكل هذه الأوصاف المصحوبة بالصور والمشاهد الطبيعية والمؤكّدات، وهُم غير منكرين، لكنَّ النبيّ-ﷺ- أراد أن يضع أمامهم وأمام كل قارئٍ اللبنات التي تهيّئ النّفْس لرؤية الحوْض بكل آليّاته حتى كأنك تشعر بطعمه ورائحته، وكل ذلك الجهد الجهيد في العبارات والصيغ والتراكيب بالطبع له دلالاته؛ تنبيهًا للعقل إلى هذا الحق الذي لا مرية فيه، والفضل الذي امتن الله -تعالى- به على عبده وحبيبه محمد -ﷺ- وعلى أُمّته التي اجتباها الله -تعالى- بفضله، وحباها بكرمه وواسع رحمته، ثم ضرورة الاهتمام بذلك وترسيخه في نَفْس وقلْب كل قارئٍ كريمٍ عاقلٍ ذي لُبٍّ وفكرٍ وتأمّلٍ وهِمَّةٍ عاليةٍ في الجودة والبيان؛ لأن كل كلمة وكل حرف وكل جملةٍ في بيان رسول الله-ﷺ- تشيع حاسّة الجمال الفطرية في الإنسان الذي يبني فكره على شيء مِن التفاعل والحوار والبناء المصحوب بالذوق السليم الذي يجعله يعطي حُكمًا على كل ما يتدبره ويتأمله في النصّ من مفاهيم بلاغية ذات مؤثرات بنائية منظوريّة عرضية متمثلة في فن التأثير على القارئ بمؤثرات مقنعة، وهذه المؤثرات المقنعة هي التي استخدمها النبي -ﷺ- في أسلوبه الوصفي للحوْض النبوي؛ ليرينا فنّ البلاغة ، وكيف يكون العرْض بأدواته الخلابة ومشاهده الواقعيَّة المؤثرة، وهذا ما يُسمى « بنظرية الواقعية والتأثرية، التي لا يحسنها سوى كاتب متمكن من البلاغة وأدواتها؛ ليكون معادلًا لما يُسمى "بلاغة الفنّ القصصي" أو التي توصف بـ"فن التواصل مع القرّاء"». [1]

(١) القاعدة والنص قراءة في منهج بلاغة الفنّ القصصي: لمحمود بن سليمان القويفلي، بحث نُشر في مجلة جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، مجلد (٨)، العدد (٢)، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، صـ٤٩٩.

ثم بعد أن تراءت أوصاف الحوض- بكل مقاييسه وصوره وألوانه وأشكاله - للصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) وعلموها جَيّدًا، أثارت هذه الأوصاف في نفوسهم سؤالًا مستأنفًا مبنيًّا على كل ما سبق ذِكْرُه من أوصافٍ وأخبارٍ وأحوالٍ، هذا السؤال هو قولهم: (أتعرفنا يومئذٍ يا رسول الله؟!) مع علمهم أن النبي -ﷺ- يعرفهم، لكنهم يجهلون الكيفية التي يريدون أن يخبرهم بها رسول الله -ﷺ- ، مما يدل على أن في الجملة إيجازًا بالحذف تقديره: أتعرفنا يومئذ يا رسول الله، ونحن يومئذ كثيرون شديدو الزحام وسط أجواء وأهوال تحيط بنا؟!، ولا يفوتنا دلالة "يومئذ" هنا في هذا المقام والسياق، وهو ظرف زمان يُراد به يوم القيامة، الذي فيه الحوض وما عليه من أوصافٍ، فدلّ ذلك على أن الجملة المعوّض عنها بالتنوين هي ما دلّ عليه كلامه -ﷺ- من أخبار سابقه عن الحوض جعلت الصحابة يستغنون عن ذكرها في السؤال مرّة أخرى؛ دلالة على ضيق المقام والموقف الذي فرض عليهم اختصار السؤال اختصارًا، مما يدلّ على شوْقهم إلى معرفة الخبر، وما يُسرّه النبي -ﷺ- من أسرار يودّون أن يعرضها عليهم؛ لإفشاء الحجّة وإقامة البرهان وإلزامهم باليقين، فكأن كلمة "يومئذ" جاءت؛ لتمكين المعنى، ولفت القارئ إلى التنبيه والحث على الترغيب والترهيب، فضلًا عن الغرض المنشود لأجله السؤال وهو الحصول على المطلوب بأقصى سرعة، لذا ناسبه مجيء لفظ "نعم"؛ تحقيقًا للإجابة على وجه السرعة أيضًا، والله أعلم.

وفي الاستفهام معنى التمني والحرص الشديد على أن يعرفهم النبي -ﷺ- وأن يكونوا بجواره والقرب منه، والشرب من حوضه يوم القيامة.

وتأمل هذا النداء للبعيد "يا رسول الله"، وفيه معنى التعظيم، والرجاء والأمل، وقُرب منزلة النبي - ﷺ - في نفوسهم، ثم تأمل - أيضًا- إضافة لفظ "الرسول" إلى لفظ الجلالة "الله"، وما تحمله من معنى الحنين والشوق والشفقة ،

وطلب الرحمة والرأفة والطمع في الحصول على رضوان الله -تعالى- ورسوله- ﷺ-، فضلًا عما أفادته الإضافة من معنى التعظيم والتشريف والتوقير لرسول الله -ﷺ- فلم ينادوه باسمه مجرَّدًا.

وبَعد تأمّل وتدقيق نظر تجد علاقة وطيدة بين هذا السؤال وبين قول النبي -ﷺ- آنفًا: "وإنّي لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه"، وفيهما تكون الغاية ويكون المقصد من الحديث، وتكمن هذه العلاقة في أن النداء مضمونًا وبيانًا جاء عقب الاستفهام، وهو شدّة التواصل بين الصحابة الكرام وبينه -ﷺ- ومودّتهم، وخوفهم الشديد من الحرمان من رسول الله -ﷺ- ورؤيته، مما يدل على انشغالهم بهذه المسألة، وهذا السؤال الذي طرحوه على رسول الله - ﷺ - ، وهو ليس سؤالًا مجرّدًا، وإنما سؤال يحمل في طياته كل وَجَل وأمل، وكأنهم يضعون لأنفسهم ميزانًا ذا كفّتين إحداهما تحمل وجلًا، والأخرى تحمل أملًا، أما الوجل فيكون من حرمانهم رؤية النبي -ﷺ- والخير الكثير من الورود على حوضه الشريف (وهذا دأب المؤمن أن يضع أمامه كل أسباب الخوف والنقصان من كل شيء؛ حتى تكون النجاة) ، وأما الأمل فيكون في حبّ رسول الله -ﷺ- وقربهم منه والورود على حوضه يوم القيامة، وهذا سؤال دقيق في غاية الجمال والتعبير عما في نفوس الصحابة وما يدور في خلجات صدورهم، وتأمل كيف أنطقهم النبي -ﷺ- هذا السؤال حتى خرج منهم بهذا النحو وهذه البلاغة الجامعة الموجزة؟!! إن النبي -ﷺ- قد مهّد لهذا الحب وهذه الألفة بينه وبين الصحابة في عبارته السابقة : " وإني لأصد الناس عنه..."، وفي ذلك تعريض لهم بالمودّة والحرص على قبولهم، وكأن هذا الوصف النبوي من خلال هذه الصورة البيانية في الجملة تنبيه للصحابة وللمؤمنين جميعًا على ألَّا تشوبَ دينَهم شائبةُ شركٍ أو نفاق أو بدعةٍ في غفلةٍ منهم فتُخرج

أعمالهم من القبول، يا له من أسلوب ينبض تلطفًا واحترامًا وتعظيمًا في عرض معجز موجز تخجل النفس من عدم الانتباه إليه، أو التمسك بمقتضاه ، ومن ثمَّ خرج السؤال من قلوب الصحابة؛ تعبيرًا عن أملهم أن يكونوا ممن تشملهم الرعاية والعناية الإلهية، والمودّة النبويّة، ولا رْيب أن هذا السؤال يجب أن ينطق به كل مؤمن حريص على طاعة الله وطاعة نبيّه – ﷺ ؛ لأنه سؤال المحب المشتاق، العاشق لدين الله، والعاشق لرؤية رسول الله – ﷺ – والقرب من جلاله والتلهّف على جواره والتسابق والتسارع إلى حوضه – ﷺ –.

وكأن النبي – ﷺ – أراد أن يحقّق لهم أملهم الذي يرجونه، حيث جعله حقيقة بين أيديهم لا تخفى عنهم، حين أجابهم بقوله: " نَعَم "، "وفي الإجابة بـ "نَعَمْ" تصديق لما فات من الكلام، وهو أن تقع جوابًا عن سؤال موجود حقيقة"(١)، فكان الجواب من جنس السؤال ومعناه؛ تقريبًا لفَهْم المراد، وتحقيقًا له حالًا وواقعًا، فسبحان مَنْ أوْدع في قلب نبيّه – ﷺ – الحكمة وفَصْل الخطاب.

ثم يؤكّد النبي – ﷺ – إجابته للصحابة الكرام بهذا التفسير والبيان والتوضيح قائلًا : "لكم سيما ليست لأحدٍ من الأمم، تَردون علي غرًّا محجَّلين من أثر الوضوء" واللام في (لكم) دلّت على الاختصاص والتمييز، وكذلك الاستحقاق؛ "لأنَّ من استحق شيئًا فقد حصل له به نوع اختصاص"(٢)، وفي ذلك دليل على تمييز المؤمنين في الأجر والعطاء، فضلًا عن تمييزهم بين الأمم في الشكل والمنظر الأبْهَى يوم القيامة، و"السّيمَا" هي العلامة الباقية التي يُعرف بها المؤمنون يوم القيامة، وجملة "تَرِدون عليَّ غرًّا مُحَجَّلين من الوضوء" مستأنفة

(١) حروف المعاني والصفات: لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق البغدادي، تحقيق/ علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط أولى، ١٩٨٤م، صـ٦.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني: صـ١٥.

استئنافًا بيانيًا لما قبلها، كأنه قيل: وما السيما؟ فكان الجواب: "تردون عليَّ"، وفي ذلك فائدة ترقب الصحابة وشَوْقهم لمعرفة ما لتلك المكانة في الثناء على أربابها، وهذا يفيد ما أفادته ودلت عليه جملة الاستفهام – آنفًا – : " أتعرفنا يومئذ يا رسول الله؟" ، وهذا دالّ على ترابط الكلمات والجمل والحروف في النصّ، "مما يدلّ على حُسن السياق، ووصفه بالواقعية ، وقيمة صدقه في الشكل والمضمون معًا".(١) ومن ثمَّ نجد تحت كل حرفٍ من كل كلمة لرسول الله– ﷺ – دلالة، وخلف كل جملة معنًى، ووراء كل كلمة مقصدًا في مادة الكلمة (مقصدًا في مكان الكلمة، مقصدًا في مجاورة الكلمة للكلمة).

وتجد لكلمة "السيما" هنا فرْقًا بينها وبين كلمة "الأثر" في آخر الحديث، ولم يُعبّر النبيُّ – ﷺ – بالسيما ثم الأثر – مع تقاربهما في المعنى وهو البقاء – إلاّ إذا كان لكل منهما دلالة في الحديث، وعلاقة تربطهما بمقصوده؛ حيث بدأ الحديث بأوصاف، وانتهى – أيضًا بأوصاف، واللفظان رابطان صدر الحديث بِعَجُزه ؛ وفاءً لهذا الغرض المقصود، وهو الترغيب في فعل الخيرات، وكل ما يوصّل إلى الجنّات، فقيل: "السيما هي العلاقة من حُسْنٍ، أو طهارةٍ، أو نظافةٍ...، أما الأثر فهو زماني متعلّق بحدوث فعل معيَّن؛ ذلك أن الأثر يكون بعد الشيء لا قبله"(٢)، واللفظان كلاهما دالّ على التمييز، وكأنّي أفهم من كلام الحبيب المحبوب – ﷺ – أن "السيما" التي اتصف بها المؤمنون كانت في الدنيا شاملة كلّ عبارة أُقيمتْ من صلاةٍ، صومٍ، حجّ، زكاة ، إنفاق، إحسان، وبرّ ... إلخ؛ لتكون شاهدة لهم، وحُجَّةً لهم حين الوقوف بين يدي الله – تعالى – ، وهذا هو الأثر والخلاصة التي تبقى

(١) القاعدة والنصّ قراءة في منهج بلاغة الفنّ القصصي: صـ ٤٩٩

(٢) المفردات في غريب القرآن: للأصفهاني، تحقيق/ صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٤١٢هـ ، صـ٦٢.

مما قدّموه؛ ليكون أثر ما قدَّموه ظاهرًا على جباههم وتاجًا على رؤوسهم، فهو بقاء من نور الدنيا؛ ليزدادوا به نورًا على نورٍ في الآخرة.

واختيار لفظ "السيما" هنا جاء مناسبًا لتحجيل الخيل وغرّته؛ لأن "السيما" علامة، فكأن في هذه العلاقة تمييزًا بالحُسْن والجمال مما يدعو إلى النظر إليها على غرار الخيل المسوَّمة، "وتكون السيما للشيء الحَسن القريب الفريد؛ لعظمه وفخامته وأهميته، كما في قوله – تعالى–: ﴿...حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤﴾ [1]، أي ليست من حجارة الدنيا، ويُعلم بسِيماها أنها مما عذّب اللهُ بها". [2]

وجاء التعبير النبوي بلفظ "السيما" دون غيره مثل: علامة، شهرة، ميْزة ... إلخ؛ "لأن السيما لفظ فيه معنى الإلصاق واللزوم كأنه سجيّة في صاحبها لم تنفك عنه ولم تفارقْه، كأنه خاتم خُتم به وطُبع عليه، قال – تعالى–: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [3] ، وقال – سبحانه – : ﴿...مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ " [4] . وهذا دالّ على أنّ تمييز المؤمنين هنا راجع إلى تمييز الحوض في صفاته، وأن السيما في الأمريْن ليست قاصرة على الشكل فقط، وإنما في الشكل والمضمون معًا (أي في الشكل والهيئة والمنظر، وفي الطبع والسّجيّة والجوهر)، والمراد من كليهما: الصفاء والنقاء والجْودة.

---

(١) سورة الذاريات : الآيتان : ٣٣، ٣٤.

(٢) لسان العرب: ٣١٢/١٢.

(٣) سورة آل عمران : من الآية ١٤.

(٤) لسان العرب : ٣١٢/١٢.

ثم قوله – ﷺ – : " ليست لأحدٍ من الأمم" جملة اعتراضية، غرضها البلاغي: التنبيه، وكأن النبي – ﷺ – أراد أن يلفت نظر الصحابة –رضي الله عنهم– إلى أخذ الحيطة والحذر مما أشار إليه آنفًا في قوله: "وإنّى لأصدّ الناس عنه ..."، وفي ذلك معنى الترغيب والترهيب.

كما أن في مجيء هذه الجملة تأكيدًا وتفسيرًا لكلمة "نَعَم" في جواب النبي – ﷺ – عن سؤال الصحابة، وفي ذلك معنى التمييز والاستقلالية التامّة والتخصيص والانفراد بهذه السيما التي يخبر عنها النبي – ﷺ – في جملة : "تردون عليَّ غرًّا محجّلين من أثر الوضوء".

والاستعلاء هنا في كلمة "عليّ" استعلاء مجازي، قُصد منه الثناء على أمته –ﷺ – بالمصاحبة الكاملة بالطاعة والتأييد؛ لذا أفادت "عليّ" هنا المصاحبة، وهي بمعنى "مع"؛ لمجيء الحال بعدها[1]، وهي "غرًّا، ومحجَّلين".

ويصح أن تكون "عليّ" بمعنى اللام التي هي للتعليل أو السببية[2]، والتقدير: تردون؛ لغرّتكم وتحجيلكم، أي: أن الغرّة والتحجيل من خصائص هذه الأمة التي تكون سببًا في ورودهم على الحوض، وقيل : "علي" هنا بمعنى الظرفية[3]، والمعنى: تردون عندي غرًّا محجلين، والعِنْديّة هنا ظرف مكان يُراد به حوض النبي – ﷺ – وعلى كلّ حالٍ فإن هذه المعاني كلها تصّب في دلالة واحدة هي ثبات أمة النبي – ﷺ – على الحوض، وفي ذلك بلوغ المكانة بالمدح والتعظيم، خصوصًا وأن النبي – ﷺ – يُفرد ذلك المعنى للأمة ويضيفه إلى نفسه "عليَّ" بياء

(١) مغني اللبيب: صـ ٩٠ .

(٢) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لابن هشام، تحقيق/ محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبية العصرية – صيدا – بيروت، دون تاريخ، (٤٢/٣) .

(٣) السابق نفسه .

المتكلم، فما بالنا إذا كان المتحدث هو رسول الله – ﷺ – ؟ . وهذا منه – ﷺ –؛ للدلالة على القرب منه وملازمته ، والسَّيْر في طريقه – ﷺ –.

وفي جملة "غرًّا محجّلين" تشبيه للأمة بالخيْل الغرّ المحجَّلة على طريق الاستعارة التصريحية؛ حيث استعار النبي – ﷺ – أثر الوضوء في الوجه واليديْن والرِّجليْن للإنسان من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليْه، بجامع الشهرة وجمال المنظر وطِيب الذِّكر ، والمراد: النور الكائن في وجوه أمة النبي – ﷺ –.

ومن الملحوظ هنا في صورة الخيل أنها جاءت لدِلالةٍ، وهي أن في الخيل أجرًا ومَغْنمًا للمؤمن؛ لذا يبقى أثرها إلى يوم الدين، قال– ﷺ – في شأن الخيْل: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم".[1] وهذا معناه أن وجود الخير فيها ملازم لها ومعقود في نواصيها حتى لكأنّهُ عُقد عليها، مما يشير إلى أن الخير سجيّة فيها، وأن الفضل والبرَكة ملازمان لها إلى يوم القيامة؛ لذا أشارت الصورة النبوية في الحديث إلى أن المؤمن مبارك في ناصيته وغرّته، ويُكنَّى بذلك عن الذات "كما يُكنَّى بالناصية عن جميع ذات الفرس"[2] وهذه الكناية تلفت نظرنا إلى شيء مُهم، وهو إيثار لفظتي "الغرّة والتحجيل" وفيها مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ حيث أطلق الجزء وأراد به الكل؛ وذلك لدلالتهما على بقية الأعضاء، ولظهورهما أكثر من غيرهما، وإذا دلّ الشيء على الشيء صار مثله، فجاءت الخصوصية في ذكرهما؛ لشمولها على بقية الأعضاء في ذلك النور

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد ماضٍ مع البَرِّ والفاجر، (٢٨/٤)، برقم (٢٨٥٢).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الخيْل وأن الخير معقود بنواصيها (١٦/١٣).

والبياض ، ومن ثَمَّ يُفهم من تباين الوصفيْن "أن الغرّة فيها معنى الشرف والعزّة، ومعنى التمييز بالسيادة على الآخرين، يُقال: غـرّة قومـه، أي سـيدهم[١]، أمـا التحجيل فيكون إشارة إلى اللزوم والرسوخ في الصفة ، وكأنه خاتم من نور طُبع على وجوههم قال – ﷺ – : " كان خاتم النبوّة مثل زرِّ الحَجَلَة"[٢].

ولعلَّ المراد من ذلك هو تخصيص أمة النبي – ﷺ – بهاتين الصفتين دون غيرهم من الأمم، وهذا ما صرّح به النبي – ﷺ– بقوله : "ليست لأحدٍ من الأمم"، وما كنَّى عنه بالغرّة والتحجيل، وهو أنه لا يدخل الحوض أحدٌ بعدهم، كمـا كـان المراد من "الحَجَلَة" في وصف ختم النبوّة أنه لا نبيّ بعده – ﷺ – ومن هنا تظهر العلاقة جلية واضحة بيْن التصريح والكناية في الوصفين .

وعلى كل حال فإن المراد النور التام والفلاح الكامل في الدنيا والآخرة؛ لأن النور مسبَّبٌ عن الصلاح ومرتب عليه وأثر من آثاره يوم القيامة ، ثـم الفـلاح الذي هو أكمل الغايات وثمرة العبادات والموصّل إلى جنّة رب الأرض والسموات.

كما أن هذين الوصفين "الغرّة والتحجيل" فيهما التمييز باللون الأبيض الدال على حُسْن الحال والمآل في الآخرة الذي أشار إليه النبـي – ﷺ– فـي وصـف الحوض بالبياض الذي مَهد به كرمزٍ من رموز وعلامات حُسْـنِ المصـير فـي الآخرة.

---

(١) لسان العرب: ١٦/٥ بتصرّف

(٢) لسان العرب ١٤٣/١١ بتصرّف، والحَجلة – بالتحريك– بيت كالقبّة ترسخ عليـه ثيـاب، ويكون له أزرار كبار. (ينظر السابق نفسه)، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، بـرقم (٣٣٨٠) ، كتاب المناقب، باب خاتم النبوّة.

ونفهم من ذلك أنَّ النبي – ﷺ– أراد أن يظهر لنا قيمة المؤمن في الدنيا والآخرة عن طريق وصفيْن، هما: البركة والنور في وجوه المؤمنين وأقدامهم، ولا يزال هذا الخيْط معقودًا فيهم وموصولًا لم ينقطع عنهم إلى يوم القيامة.

كما أن في إيثار "الخيْل" هنا – باعتباره مفهومًا من الغرّة والتحجيل– إيحاءً بعزّة المؤمنين وشرفهم عند ربهم – جلّ وعلا –، هذه المكانة التي تحدّث عنها ربنا في قرآنه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وهذا المعنى معلوم – أيضًا– في كتاب الله –تعالى– حين أقسم بالخيل صراحة فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾[2]، وفي ذلك دلالة على أن الخيل محلّ اهتمام وافتخار في عقل ولُبِّ كل رجل عربي، في شتّى مناحي حياته (حربه، سلمه، غناه، فقره، ترفه، منازعاته، مسابقاته ... إلخ)، حتى أصبحت من أغلى وأعزّ وأنْفس وأثمن ما يمتلك.

ومن اللافت للنظر – أيضًا – تتابع اللفظين (غرًّا، مُحجلين) مع أن دلالتها اللغويَّة واحدة، هي النور والضياء والسطوع، يقول ابن حَجَر : " غرًّا جمع أغرّ"، أي ذو غرّة، وأصل الغرّة لمعة بيضاء تكون في جبهة الفرس، ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر، والمراد بها هنا النور الكائن في وجه أمّة محمد – ﷺ – وغرًّا منصوب على المفعولية أو الحال، أي أنهم إذا دُعُوا على رؤوس الأشهاد نودُوا بهذا الوصف، وكانوا على هذه الصفة، وقوله : "محجّلين" من

(١) سورة المنافقون: من الآية (٨) .

(٢) سورة العاديات : آية (١).

التحجيل، وهو بياض يكون في ثلاث قوائم من قوائم الفرس، وأصله من الحِجل – بكسر الحاء– وهو الخلخال، والمراد به هنا النور". (١)

وهذا الكلام من العلاّمة ابن حجر يشير إلى التنوع اللفظي للكلمتيْن "غـرًّا، محجّلين"، مما يُفهم منه التنوع الدلالي –أيضًا– في المعنى، فكل لَفظة لها ميْزاتها وخصائصها وعلاماتها، لكن في النهاية تجد إحدى الكلمتين مؤكدة للأخـرى فـي حجم وقدْر وثقل هذا النور، وكأنه يحيط بجسد المؤمن كله، أي ذاته مـن أعـلاه حتى منتهاه.

والحرف "من" في قوله –ﷺ– :(من أثر الوضوء) أفاد هنا "التعليـل"، و"أل" في (الوضوء) لتعريف الحقيقة أو الماهية، والغرض: التنويـه بشـأن ومنزلـة الوضوء وجلاله، وأنه سبب أصيل في جلب النور في وجوه المؤمنين وفي ذلـك دلالة على الترغيب في الإكثار من السجود وإسباغ الوضوء وفعل كل ما هو لائق بصلاح المؤمنين وفلاحهم ونجاتهم يوم الدين.

والمفهوم من كلمة "أثر" احتمالان، أحدهما: أن يكون أثرًا محسوسًـا يُـرى ويشاهَد، وكأنه خاتم طُبع على جباه المؤمنين لا ينفكّ عنهم، كمـا فـي قولـه – تعالى– :﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾(٢) أي نور متمكن من وجوههم تمكن الظرف من المظروف. وثانيهما: أن يكون أثرًا نفسيًّا خلّفه الوضوء فـي نفْـس وقلب المؤمن، وعلى ذلك فإنَّ هذا الأثر الباقي على جبهة المؤمن والعـالق فـي قلبه متعلق بـ"السيما" ، وكأن السيما هي ما يتعلّق بجباههم مـن المـاء عنـد الوضوء مثل ما يتعلّق بجبهة الإنسان من أثر الطين والحصى والتـراب والمـاء

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: (٢٣٦/١).
(٢) سورة الفتح، من آية ٢٩.

ونحو ذلك، وهذا يفيد لزوم النور في الوجه واستقلاله به استقلالًا تامًّا، أو أن المراد بالوضوء هنا الصلاة؛ لأنها مترتبة على الوضوء، والوضوء لازم من لوازم الصلاة، بل شرط من شروط صحتها شرعًا، وعلى ذلك فإن في كلمة "الوضوء" مجازًا مرسلًا علاقته السببيّة؛ حيث ذُكر السّببُ وأُريد المسبَّبُ؛ لأهميته، وإفادة أن النور لا يحصل إلاّ به؛ لحديث: "تبلغ الحلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء".(١) وفي ذلك توجيه إلى أن الحلْية خاصّة بالصحابة-رضي الله عنهم- وغيرهم من المؤمنين.

وقيل: إن لفظ "أثر" عائد على لفظ "السيما"؛ حيث إن "الأثر كالغُدَّة يكون في جبهة الرجل، وقال الأعمش: من كثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهُه بالنهار ، وقيل: بياض وصفرة وتهيّج يعتري الوجوه من السَّهر، وقيل بياض يكون في الوجه يوم القيامة كالقمر ليلة البدر يجعله الله كرامة للمؤمنين".(٢)

وهذا دالّ على ظهور النور وبروزه في وجوه المؤمنين إبصارًا ورؤية.

وفي ظاهر الجملة النبوية دلالة على أن من لم يُحسن وضوءه لا غُرّة له ولا تحجيل، ولذلك كما كرّم النبي-ﷺ- أهل الوضوء الحَسن توعّد مَنْ يُقَصِرُ في وضوئه، فقال: "وَيْلٌ للأعقاب من النار". (٣)

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٥٠)، ٢١٩/١.

(٢) التحرير والتنوير، (٢٠٦/٢٦) بتصرّف.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، حديث رقم (٣٤٠) ، (١٣/١). والأعقاب : جمع عقب – بسكون القاف أو كسرها – وهو مؤخر القدم، وخُص العقب بالعذاب؛ لأنه العضو الذي لم يُغسل ، وقيل: أراد صاحب العقب، فحذف المضاف. (لسان العرب: عقب) .

ومما يجدر الحديث عنه وجود المناسبة الشديدة بين مطلع الحديث ومقطعه وخاتمته؛ حيث جمع النبي -ﷺ- بيْن البياض في أوّل الحديث (وهو لون الحوض)، وبيْن الغرّة والتحجيل (وهما البياض والنور في الوجه والرجْلين)، وبين الوضوء الذي خَتَم به النبي -ﷺ-.

ويُلحظ أن الختام جاء من جنس المطلع؛ لأن المقام مقام توجيه وإرشاد وترغيب، وقد جَمَع النبي -ﷺ- فيه بيْن الإجمَال والتفصيل عبْر صورتيْن ووصفيْن بيانيين جسَّدهما النبي الكريم -ﷺ- في حال المنافقين وأهل المعاصي والكبائر والبدع، وحال المؤمنين ، وهذا استحسان نبوي دقيق، وهو أن يكون مطلع الكلام ومقطعه من جنس واحد، ثم يعود -ﷺ- ليختم بمثل ما بدأ به، وفي ذلك دلالة على ابتهاج النفْس، وانشراح الصدر، والأريحيّة في لذّة النظر عن طريق الوصف؛ فقد بدأ الحديث بالثواب والترغيب فيه والحث عليه، ثم ختم به- أيضًا-؛ فالحوض وما عليه من صفات عبارة عن ثواب وجزاء ونيْل كريم يُعطَى للمؤمن، ثم الوضوء الذي منه النور والضياء الذي وهبه الله وخلّفه في جبهة وقلب المؤمن، خاصّة وأن الرّابط الذي يجمع بيْن البياض والنور (في أول الحديث)، وبيْن الوضوء (في آخره) هو الجمال والبهاء وحُسْن المنظر؛ "لأن الوضوء- بمفهومه العام- كلمة دالّة على صفة الأفعال، والأخلاق، وحُسْن المنظر، كما أن الوَضاءة تكون في الصورة وحُسْن المنظر، يُقال: صورة وضيئة أي حسنة"(١)، ولعلّ ذلك ما أفهمنا تقديم الغرّة على التحجيل في الرتبة الكلاميَّة؛ لأن إسناد النور والبياض إلى الوجه يكون أكثر؛ لأنه أكرم عضو في الإنسان،

(١) الفروق اللغويَّة: لأبي هلال العسكري، تحقيق/ محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م،صـ٢٦١.

وفيه يُكرم أو يُهان، قال -تعالى-: ﴿...مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ...﴾[1] ، ولذلك أُعْطي البياض في الخيْل؛ لشرفه، وأنه الحالة المُثلى، وفي ذلك معنى إسناد البياض والنور إلى الوجه وإن كان جميع الجسد أبيض؛ لأن الوجه أول ما يلقاك من الشخص وتراه وتعرفه، وهو أشرف أعضائه". [2]

وفي اللون الأبيض دلالة على أنّه "لون وجوه أهل السعادة يوم القيامة، ولون مشروبات أهل الجنّة"، وبذلك يكون الحديث قد جمع بيْن لون الحوْض (الذي هو مشروب أهل الجنة) [3]، وبين لوْن وجوه المؤمنين (وهو البياض الحاصل من الوضوء).

وكل تلك الروابط؛ لنصل في النهاية إلى الرابط الكلي الجامع بين أوصاف الحوض وبين سيما المؤمنين وعلاماتهم يوم الدين ، وهو الفائدة الكبرى والنفع الأعظم الذي ينحصر في دائرة الحوض، وري مائه، وعظيم سعته ، وحلاوة مذاقه ، وإشراق لونه ، ثم شغل المرء نفسه بعبادة ربه "الصلاة" ؛ لأنها رأس الإيمان، وعمود الإسلام، وملاذ كل غاية، وعماد كل فضيلة، وبهذا نجد أن الفائدة الكبرى والنفع الأعظم الحاصل من الحديث الشريف (مطلعًا ومقصدًا وخاتمة) هو أن يكون المؤمن في معية الله وجنابه، وذلك باستحضار عظمته وجلاله - تعالى - في الصلاة التي تكون سببًا في بياض وجوه المؤمنين يوم القيامة، وكذلك يكون المؤمن في معية رسول الله - ﷺ- يوم القيامة بالورود على حوضه الشريف

(١) سورة النساء: من آية ٤٧.

(٢) البحر المحيط في التفسير: لأبي حين الأندلسيّ، تحقيق/ صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط١٤٢٠هـ (٢٩٢/٣).

(٣) ينظر: دلالات الألوان في القرآن: لأبي إسلام أحمد بن علي ، طبعة ٢٠٠٨م، صـ٢.

والاغتراف من مائه السلسال البرّاق، والقرب من رسول الله – ﷺ – وملازمته، والسبب في كل ذلك التمسك بما علمنا إياه حبيبنا – ﷺ – وما أخبرنا به من أوصاف كانت سببًا في التفكر والتأمل والدأب في عمل الخيرات والطاعات، وكل ما هو سببٌ في فلاح المؤمن ونجاحه ونجاته في الآخرة، ودخول الحسنى وزيادة – إن شاء الله تعالى – ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

الجانب السادس: سمات وموازنات في حديث الحوض .

أوّلًا : القاموس البلاغي :

(١) الجمع بين التصوير الحسي والعقلي :

بعد دراسة الحديث دراسة بلاغيّة ــ بفضل الله ــ تبيّن لنا أن الصورة التشبيهية جاءت خادمة للسياق ومبيّنة له أكثر من غيرها ،أي: أن المقصد والمراد بأن من خلالها بصورة أوضح وأظهر، وانظر لترى ذلك في قوله ــﷺ ــ: (أشدّ بياضًا من الثلج ــ أحلى من العسل باللبن ــ أكثر من عدد النجوم ــ وإني لأصدّ الناس عنه كما يصدّ الرجل إبل الناس عن حوضه ــ غرًّا محجّلين) ، وكلها أوصاف حملت في طياتها تشبيه الحوض بالثلج بياضًا ، ثم تشبيهه بطعم العسل باللبن مذاقًا ، ثم تشبيهه بكثرة عدد النجوم في عدم الإحاطة والإحصاء بعدّها وعددها تارة، ثم تشبيهه بالنجوم لمعانًا وبريقًا تارة أخرى ، ثم تشبيهه ــ ﷺ ــ صدّ من يمنعهم عن الورود على حوضه الشريف بصدّ الرجل إبلَ الناس عن حوضه بجامع المشقة والمعاناة والغضب ، ثم تشبيهه الأُمّة بالخيل الغرّ المحجّلة بجامع جمال المنظر والشهرة وطِيب الذِكر والتمييز في كلٍّ .

وبهذا يكون قد غلب التصوير الحسي على غيره بصورةٍ واضحة جليّة لا غموض فيها ولا تعقيد؛ وعلة ذلك أن النفْس ــ كما خلقها الله ــ تعالى ــ وجبلت عليه ــ تأنس بالأشياء التي تعرف بالحواس والأوصاف ، فتقام بينهما الصلة

وتحدث الأُلفة ؛ « لأن تمثيل المعاني وإبرازها في صورة حسيّة يعني بحاجة النفْس منها ، ويشي بمعاني وأحاسيس كثيرة تعجز اللغة العادية في التعبير عنها أو تحتاج في الإبانة عنها إلى حديث طويل ». (١)

وهذا ما نراه في صورة « الإبل » بشكل أعمق وأوضح؛ لأنها من أعزّ ما يمتلك الإنسان العربي، ومن أمتع الحيوانات التي يألفها ويعيش بجوارها مع ما فيها من ثورات وصولات وجولات واصطدام ونفار وإباء وصبرٍ ... ، وفي ذلك يقول الشيخ عبدالقاهر :« ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أوّلًا من طريق الحواسّ والطباع ، ثم من جهة النظر والرويّة ، فهو إذَنْ أمس بها رحِمًا ، وأقوى لديها ذِمَمًا ، وأقدم لها صحبة ، وآكد عندها حرمة ، وإذْ نقلتها في الشيء بمَثَله عن المدرَك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب إلى ما يدرَك بالحواس أو يُعلَم بالطّبع ، وعلى حدّ الضرورة ، فأنت إذَنْ كمن يُخبَر عن شيءٍ من وراء حجاب، ثم يُكْشَفُ عنه الحجاب ، ويقول : ها هو ذا ، فأبصر تجده على ما وصفتُ ، فإن قلت إن الأُنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر ، إنما يكون لزوال الرّيْب الشّك ... »(٢)

كما يُلحظ في الحديث أن هناك صفةً جامعة ، ورباطًا حميمًا بين الآنية وبين كثرة النجوم في قوله ــ ﷺ ــ : « ولآنيته أكثر من عدد النجوم » ، هو كون الطرفين حسيّيْن ، لكن بينهما جامع حسي وآخر عقلي ، أما الحسي فمن ناحية الرؤية والبصر (رؤية الآنية ، ورؤية النجوم في السماء)، وأما العقلي الذي لا يستطيع الإنسان إدراكه فهو عدّ وإحصاء هذه النجوم ؛ لما فيها من إعجاز إلهي

(١) الصورة البيانية وقيمتها البلاغية ، د/ بسيوني عرفة رضوان ، دار الفكر الإسلامي ، ط (٢) ، سنة ٢٠٠٢م ، صـ٦٨.

(٢) أسرار البلاغة ، صـ١٢٢ .

وفي ذلك بيان قدْر المؤمن ، وسموّ منزلته ، وعلوّ مكانته عند ربه ــ جلّ وعلا ــ يوم القيامة وهو يُكرَّم هذا التكريم القيّم الذي يجهله المنافقون والكافرون ولم يصلوا إليه ، ولا إلى آليّاته ، والأخذ بأسبابه ؛ لذا تراهم يُعاقَبون بطردهم وصَدّهم عن الحوض الشريف ؛ جزاء جهلهم ، وفقدهم الإحساس ، وفقدانهم العقل ؛ لأن هذه الأوصاف وهذا التكريم الربَّاني لا يُدركه إلّا أولوا الألباب من المؤمنين ذوي الفطنة والبراعة والفَهم والقصد .

وكذلك ترى الطرفين حسيّيْن أو أحدهما حسيًّا والآخر عقليًّا في قوله ــ ﷺ ــ : « غرًّا محجّلين من أثر الوضوء » ؛ لأن الغرّة والتحجيل أمر مُشاهَد ومحسوس في الخيل ، وكذا النور والبياض (وهو أثر الوضوء) ، وهو إما أن يُرى ذلك على وجه المؤمن فيكون أمرًا محسوسًا ، وإما أن يكون معقولًا بما يخلفه الوضوء في نفْس وقلب المؤمن فيكون نورًا يُحسّ في تصرفات المؤمن وأفعاله وسلوكه وطباعه وعباداته .

(٢) دقّة التصوير وجمال الوصف النبوي في تنوّع الصورة :

لقد أرانا النبي ــ ﷺ ــ الأشياء والصور كما نحسّها ونشاهدها في الطبيعة وحالنا وواقعنا الذي نعيشه ، عن طريق الوصف بألفاظ غنيّة ، ومعبّرة ، وموحية ومما يزيد الوصف حلاوة ودقّة في الصورة أن أعطانا النبي ــ ﷺ ــ أمكنة الصورة وزمنها ، فاشتملت الصورة في الحديث على أمور غيبيّة أخروية جمعت فأوعت (لونًا ، وطعْمًا ، ومسافةً ، وهيئةً ، وزمانًا ، ومكانًا) ، مما أدّى إلى ذكر التفصيل ، وذِكر الجزئيات التي يَحسُن أن تشتمل عليها الصورة الواحدة ، ثم تتفرع منها صور متنوعة ذات دلالات مختلفة ؛لتشير إلى المراد ، وليكون اللفظ آكد للمعنى ، ويكون المعنى أمكن وأشدّ تناسبًا .

(٣) الحقول الدلالية :

تمثل الألفاظ في النصّ النبوي الخيوط في النسيج ، والألوان في الصورة الكلية ، وكل نسيج ترتبط خيوطه برباط ما يشكّل في النهاية قطعة من اللباس المكتمل ، وكذا كل لون في الصورة المرئية يتلاقى مع ما يشبهها ويقترب أو يبعد عن لون آخر ، وفي الختام يمثل اللوحة الكاملة .

والأمر لا يبتعد في الحديث الذي بين أيدينا ؛ فالألفاظ داخل النصّ تقترب حتى تتحد ، وتفترق حتى تختلف ، والسياق هو الفيْصل والمُعين في ذلك كلّه ، وهذه الألفاظ تقترب من بعضها حتى تتحد ؛ لترسم لنا في الختام حقلًا دلاليًّا كليًّا تجتمع على مائدته هذه الألفاظ .

فمثلًا تلحظ ألفاظًا مثل : (بياضًا ــ الثلج ــ العسل ــ اللبن ــ النجوم ــ غرًّا ــ محجّلين ــ الوضوء) ، وكلها ألفاظ تقترب حتى يتحد أكثرها في الدلالة والمفهوم العام ، وفي جميعها تجدها تمثل حالة من حالات الانتباه والوقوف على صفات الحوض من مجيء النور ، وذهاب الغشاوة والقذى عنه .

وهذه الألفاظ خَدَمٌ للمعنى والصورة والسياق الذي وردت فيه ؛ مبالغةً في وصف الحوض ، وجذبًا وتشويقًا إليه .

كما يُلحظ أنها جميعها ألفاظ داخلة في الغيبيات ؛ فتتحدث عن أمرٍ من أمور الآخرة ؛ لأن فيها توجيهًا للمؤمنين ؛ حتى لا يُعكّر صفو إسلامهم وإيمانهم بأي بدعة أو شائبة يسلكونها فيبتعدوا عن الطريق الصحيح ويضلون السبيل إليه مثل ما فعل أصحاب البدع والأهواء من المنافقين والكافرين الذين خالفوا رسول الله ــ ﷺ ــ ، فكان عقابهم الحرمان والطرد من حوضه الشريف.

ولذلك تجد النبي ــ ﷺ ــ يستخدم حقل الصدّ في وصفه طردَ هؤلاء بقوله : (وإني لأصدّ ... كما يصدّ ...) ، وهذا حقل دلاليّ آخر جاء عن طريق التوكيد

بهذه الثنائية في اللفظ ؛ تأكيدًا على اتهام هؤلاء بالمخالفة، وتخويفهم وتهديدهم بمصيرهم الأليم .

وفي هذه الألفاظ ما لا يخفى من أسلوب التنظير ، أو ما يُعرف بـ « التشابه أو الترادف في المعنى » ، « مما يجعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حالته حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء » . (١)

ومن ثَمَّ تجد ألفاظًا دالّة على نظيرها في مفردات أخرى بينها تلازم وعلاقة في الدلالة والغرض، مثل استخدام الفعلين (أصدّ ، يصدّ) في الحديث ومدى تناسبهما لصورة "الإبل" في القوّة والثورة والهجوم ؛ ليرسم لنا النبي ــ ﷺ ــ صورة المشاهد والأحداث والمواقف بشيء من الإيضاح والوصف الدّال هنا على القطع ، والفصل ، والغضب ، والحرمان .

ومن النظائر ــ أيضًا ــ التي يستحضرها القارئ في ذهنه ويقف عندها متأمّلًا علاقاتها ببعضها، الألفاظ المقرونة بوصف الحوض من حيث المسافة والحجم ، واللون ، والكثرة ، والطّعم ، وكلها ألفاظ وأوصاف توحي بنقاء الحوض وصفائه ، مما يدلّ على نقاء قلوب وصفاء سريرة مَنْ يرِدُون عليه ؛ وما ذلك إلّا لتمكن الصورة في النّفْس أيّما تمكّن ، وجذبًا وتشويقًا لهذا الحوض الشريف .

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ،للإمام السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط أولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، (٤٥/١). والإمام السيوطي يعني بأسلوب التنظير « أن يكون بين الألفاظ روابط من حيث العموم والخصوص ، والعقلي والحسي ، أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهني من الترادف ، والسبب والمسبَّب ، والعلّة والمعلول ، ونحو ذلك » . (السابق نفسه ، صـ ٤٤ ، ٤٥).

وليس ذلك ببعيد عن " الغرّة والتحجيل " ، وعلاقاتهما بلفظ " الوضــوء " ، هذه العلاقة التي تكمن في صورة المؤمن وصلته بربه ــ جلّ وعلا ــ المترتــب عليها تكريم أُمّة النبي ــ ﷺ ــ ، وتمييزهم عن غيرهم من سائر الأُمم .

(٤) **تآزر الصورة واجتماعها** :

وهذا يعني وجود أكثر من صورة بلاغية في الجملة الواحدة ، ومــن ذلــك اجتماع التشبيه مع الإيجاز بالحذف في قول النبي ــ ﷺ ــ : « وأحْلى من العسل باللبن » ، ففيه إيجاز بالحذف تقديره : وماؤه ، أو طعمه ، أو مذاقــه ؛ وعلــة الحذف دلالة ما قبله عليه وهو لفظ "حوضي" في أول الحديث ، ثم ترى التشــبيه من زاوية أخرى ، وهو تشبيه الماء بحلاوة العسل باللبن .

ثم قوله ــ ﷺ ــ : « ولآنيته أكثر من عدد النجوم » ، وفيه تشبيه ، ومجاز مرسل ؛ حيث شبَّه النبي ــ ﷺ ــ الحوض الشريف بالنجوم بجامع النور واللمعان والإشراق والتلألؤ في كلّ ، ثم ترى في لفظ "آنية" مجازًا مرسلًا ، علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وأراد الكلّ ، وهو مجموعة الكؤوس والأواني المتعدّدة ، بدليل كلمة "أكثر من عدد النجوم" ، فدلّت الأكثرية هنا على كثرة عدد الكؤوس والأواني حتى لو كان اللفظ مرادًا به المبالغة .

ثم ترى التشبيه والكناية مجتمعيْن في قوله ــ ﷺ ــ : « وإني لأصدّ الناس عنه كما يصدّ الرجل إبل الناس عن حوضه » ؛ حيث شبه النبي ــ ﷺ ــ صــدَّه بصدّ الرجل إبل الناس عن حوضه بجامع إحكام القوّة والمَضَاء ، ومــن ناحيــة أخرى جاءت العبارة كناية عن بذل الجهد والمعاناة والمشقة التي يلاقيها ــ ﷺ ــ في عمليّة الصدّ ، وهذا اجتماع بين فنّين له أثره على المتلقي ، خاصّــة عنــدما تشعر نفسه بذُلّ وخِزْي وهَوان هؤلاء ، حين يرى التأكيد يتلاحــق علــيهم مــن جهات مختلفة وصور شتّى .

ثم ترى التشبيه والاستعارة في قوله : " غرًّا محجّلين" ، ومن ثَمَّ فإن تشابك الفنون البلاغية يجعلها تنهض في جميعها بالصورة الكلية ، وفي ذلك دليل على التنويع والتشكيل في صياغتها ؛ لتعطينا صورًا صارخة الألوان ، صاخبة الجرس نامية الحركة .

ثانياً : ملامح وخصائص أخرى بارزة :

خاصيّة الألوان :

استخدم النبي ــ ﷺ ــ لون البياض في وصف الحوض " لهو أشدّ بياضًا من الثلج " ، فذكر اللون بحقيقته "بياضًا" ، ثم ذكَر الأبيض بما دلّ عليه في كلمة "الثلج" ، ومثل ذلك تراه في قوله " غرًّا محجّلين " ، مرّة بالمعنى الحقيقي، ومرّة أخرى بالمعنى المجازيّ ؛ فاللون الأبيض مشهور في الخيل ، ويُراد به النور والبياض الكائن في وجوه أُمّة النبي ــ ﷺ ــ يوم القيامة ، وكذا كلمة "النجوم" ، ولهذه الألوان دلالات على الالتفات نحو المقصود بسرعةٍ ، وبصورة واضحة تخلب النفْس مع طِيب ذِكرها وجمال منظرها ، وكأن النبي ــ ﷺ ــ أراد أن يوضّح للقارئ أن هذه الألوان علامات وسمات واضحة جاءت ؛ دلالةً على الكرم والعطية للمؤمن بصورة محسوسة ، ملموسة ، ومشاهَدة ، ومن جنس الألوان التي يعلمها الناس ويألفونها ، بحيث لا تَخفىَ على أحَد .

خاصيّة الحركة :

وتظهر تلك الخاصيّة في أكثر من موضع في حديث الحوض ، ومن ذلك قوله ــ ﷺ ــ : «إنّ حوضي أبعدُ من أيلة من عدن» ؛ ففي ذلك الحركة لتقدير المسافة من وإلى المكان ، وكأن مسافة الحوض (على سبيل المبالغة والتصوير) تقدير بحركة المشي من أيلة إلى عدن ، وهذا من باب تقدير الأشياء وقياسها والوصول إلى بيان كنهها عقلًا لا حسًّا ، يقول الإمام عبدالقاهر « واعلم أن مما

يزدان به التشبيه دقّة وسحرًا ، أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات » . (١)

كما يُلحظ خاصية الحركة في هذه الثنائية وهذا الجناس الاشتقاقي "أصدّ ، يصدّ" ، وهو إيذان بطرد الكافرين والمنافقين بالثورة عليهم ، وفي الانقضاض عليهم تجد مساحة من الحركة الجسدية تتمثل في قوّة النبي ــ ﷺ ــ ، وتهديده وتخويفه لهؤلاء بمصيرهم المحتوم الذي لا فرار منه ولا فوت من خلال ذلك الموقف العصيب المهين .

وهذه الحركة القويّة في الصدّ فيها دلالة على معنى القوّة الصارخة الساخرة التي تتناسب مع شدّة عناد المنافقين ومَنْ على شاكلتهم ، فكانت تلك العناصر من القوة والحركة والكرّ والفرّ مناسبة تمامًا مع وجود لفظ "الإبل" ؛ لضخامتها وحجمها ، وثقلها ، واصطدامها بالجسم الذي تقع عليه، فكأن قوّة التعبير هنا نابعة من رحم قوّة العذاب وشدّته ووقعه في نفوس هؤلاء، وفي ذلك دليل على أن حركة الإبل تقابلها حركة الإنسان في الصدّ والهجوم ؛ فبعدما كانت الإبل أليفة أنيسة صارت موحشة مخيفة تهاجِم وتُهاجَم ؛ دلالةً على فزعها ، وثورتها ، والعبرة بالخواتيم .

ظهور أثر البيئة :

والبيئة من أهمّ الروافد التي ينهل منها المتحدّث عناصر صوره ؛ لإقناع المخاطب وانسجامه مع ما يسمعه ، وهذا ما يسمى بنظريّة " التوافق البلاغي " ، ولن يتمّ هذا التوافق إلّا من خلال عدّة جوانب يجب مراعاتها بالنسبة للمتحدث في جانب المتلقي ، من أهمها : مراعاة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، الذي يندرج تحته الفروق الفردية، ومراعاة السياق المقامِي والحالي والحدث والموقف ؛ حتى

(١) أسرار البلاغة ، صـ١٨٠ .

تكون الصورة ملائمة للسياق وأوْفى للغرض في استخراج المراد ، وهذا ما استعمله النبي ــ ﷺ ــ هنا حين اختار صورة الإبل، وصورة الخيل الغرّ المحجّلة ولا ريْب أن لذلك أثره القوي ومدلوله في مكوّنات الأفكار ، والمتحدث بذلك يضع القارئ في دائرة لا تَخرج عن حسّه ومشاعره القريبة من الوصف ؛ لأنه حينئذ لن يشرد ذهنه ولا يختلف عقله ولا يبعد فهمه عن أوصاف غير التي عهدها ، وعاشها ، وألفها ، وواقعها ، وأقام على أرضها ، وغاص فيها وغاصت فيه ليل نهار، مما يجعل الصورة أكثر ارتباطًا ولُحمةً بالشخص وبيئته ، وأوْعى فهمًا ، وأصقل ذهنًا ، وأعمق إحساسًا ، وأكمل وصفًا ؛ إيفاءً بالغرض على وجه السرعة دون تكلّف أو صنعةٍ أو غموض، (والله أعلم) .

وفي الختام أسأل الله – تعالى– أن يَسْقينا من حوض نبيّه الكريم، بيد حبيبه الكريم –ﷺ– شربةً هنيئة مريئة مطمئنة لا نظمأ بعدها أبدًا، وأن يجعل في أجسَادنا نورًا، وفي وجوهنا نورًا.

الخـــاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله -تعالى- وسلّم وبارك على معلّمنا وحبيبنا وشفيعنا سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثرهم واتبع هداهم إلى يوم الدين.

وبعـــد ،،،

ففي ختام هذه السياحة البيانية والتطواف حول نصٍّ من نصوصه-ﷺ- التي تصف حوضه الشريف أقف على أهم النتائج التي توصَّل إليها البحث، وهي:

الوصف فن واسع من فنون القول ومجالاته التي يصل بها المتكلم إلى ثراء لغته وبيان لسانه وبلاغة حديثه، فضلًا عن الفنون البلاغية الأخرى التي تكسب الوصف إيضاحًا وتفصيلًا وجمالًا ورونْقًا.

الرمزيّة والواقعيّة في الوصف، مما يميّز السياق الوصفّي بقوّة الظهور، وحُسْن الدلالة، خصوصًا في الأمور المتعلقة ببيان حقائق الدين، وهذا راجع إلى أن الوصف في حقيقته أسلوب معجزٍ مستمَدّ من حقائق المعاني المتنوعة في تصوير بلاغي راقٍ شافٍ كافٍ.

التنويع في الطريقة الأسلوبية للوصف، القائمة على المباينة والمغايرة في العبارات والجمل والتراكيب والصور، وذلك نابع من اختلاف السياق وقرائن الأحوال (نابع من مقام معيّن، سلوك معيّن، حركة معيّنة، طاقة معيَّنة، وقت معيّن)، وهذا التنويع؛ حتى لا تقع الرتابة أو الألفة لأسلوبٍ ما، وذلك بإنتاج دلالة أسلوبٍ بأسلوبٍ آخر، يُفهم معناه من خلال السياق.

المشاركة الثقافية المبنيّة على حبّ المعرفة والتطلع والتشوّق إلى ما وراء الستار والمجهول (كما سأل الصحابة – رضي الله عنهم- رسول الله -ﷺ- : أتعرفنا يومئذ يا رسول الله؟)، مما يؤدي إلى تجديد نشاط السامعين، وتفاعلهم مع

الأحداث، والسياقات، والمقامات، والأحوال ، والمواقف ، مما يدل على فحوى سؤال السائل ، خاصةً وأن سؤاله يتعلق بحوضِ النبي -ﷺ- أو بالجنة عمومًا ؛ فهذا غَرَسَ في عقله وقلبه العلم النافع الذي يُثابُ المرء عن طلبه والتماسه بإذن الله ــ تعالى ــ .

تعزيز الوصف بشيء من الطبيعة مثل الحيوان المستمَد من بيئة العربي الصحراوي، (كما ذَكَر النبي-ﷺ- في الحديث الإبل، والغرّة والتحجيل في الخيْل) وفي ذلك أعظم الأثر على النفْس وتقريب الصورة من الذهن، فتقتنع النفْسُ وترتاح، فضلًا عن إمتاع المشاهد لهذه الصورة، وهي تتجسد أمامه في موقف مُعيَّن، كصورة الإبل وهي تهجم على المورد فيصدّها الرجل؛ لأنها إبل غريبة . ومن صور الطبيعة في هذا المقام-أيضًا- صورة "الثلج، واللبن، والنجوم"، مما يدل على أن هذه الصورة الوصفية خدمٌ للإفصاح عن المقصد، والمراد بشكل واضح لا غموض فيه ولا تكلّف من ناحية، ومن ناحية أخرى كان النبي -ﷺ- يخاطب الناس بما يناسب طبيعتهم، فلكل عقلٍ ما يناسبه من الحديث، ولعل ذلك من آثار الحكمة التي امتنَّ الله-تعالى-بها على حبيبه- ﷺ - .

صياغة الحديث الشريف في هياكل أسلوبية وفنون بلاغية موجزة متقنة، فلا هو بالإيجاز المخل ولا هو بالإسهاب المملّ.

حكاية حال النبي-ﷺ- أثناء إلقائه الحديث، وجاء هذا في قوله -ﷺ-:"وإنيّ لأصّد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه"، مما يؤكّد أن العملية التربوية التعليمية تُعنى بالوصف عن طريق الحركة الجسدية كما تُعنى بلغة الإشارة والرسم ، وهذا كثير في حديث رسول الله -ﷺ -.

التلطّف في الأسلوب، باستخدام لغة التبشير، كما في قوله-ﷺ- :" لكم سيما، ليست لأحدٍ من الأمم..."، مما يجعل المتلقى مُقبلًا على المضمون بشيء

من التمكين للمعنى بنمط خاص، بعيدٍ عن ملابسات التلقيّ، وفي ذلك تجديد لدلالات التلطف والالتماس لديْه.

التعليل في الحث على الشيء والترغيب فيه من وسائل دفع المتلقي لفعل الطلب وهو مقتنع راغب، وذلك حيث قال النبي -ﷺ- للصحابة: "تردون عليّ غرًّا محجلين من أثر الوضوء"، أي تردون على الحوض؛ لأنكم تختصون بالغُرّة والتحجيل؛ بسبب الوضوء الحاصل من النور التام على وجوهكم يوم القيامة، وفي ذلك حث على الترغيب في فعل الوضوء وإسباغه، والإكثار من السجود.

وأخيراً: مما يوصي به الباحث طلاب العلم دراسة بلاغة الأحاديث المشرعة للأُمّة دينها وفقهها وبيانها؛ لتربية عقول المؤمنين على إرادة العلم عن شيء؛ حتى لا نكون ممن فرغت قلوبهم وخلت عقولهم من بيان الحقائق والتدبّر والاعتبار، فما أجمل أن يعود المسلمون لدراسة بيان رسول الله-ﷺ- وقراءة أحاديثه !!؛ فكلنا في حاجة إلى مثل هذه الدراسات التي تحتاج منا إلى الوقوف على مثل هذه المظاهر التربوية والقيم والمبادئ الإنسانية، والجهد المتضافر؛ لبيان وصف حال المؤمنين ومآلهم، ووصف حال المنافقين والكافرين ومآلهم؛ ليكون فنُّ الوصف في النهاية بيانًا وطريقًا للتقويم، والتعليم، والحفظ من سبل الشيطان وأعوانه، والله-تعالى- أعلى وأعلم .

وبعد ،،،

فأرجو من الله-تعالى- أن أكون قد وُفّقت في عمل هذا البحث، والكشف عن بلاغته -قدْر المستطاع من الجهد- ؛ للحصول على أسباب دقة الكلمات، وبراعة المعاني المسوقة لتحرير المراد، ولا ريب أن هذا غيض من فيض، تاركًا المجال لمن بعدي؛ وصولًا إلى ما لم أصل إليه؛ حتى تتلاحق الجهود وتتضافر سبل العلم القائم على الفهم الواعي، والنظر الثاقب الصائب القائم على دراسة البلاغة

والمجتمع، والتي لها ارتباط واقعي بدنيا الناس وحياتهم ومعايشهم وأحوالهم، كما كان النبي -ﷺ- في نصوصه مع الناس دينًا ودنيا وآخرة، فإن وفقت فالتوفيق من الله، وإن تك الأخرى فحسبي أنني اجتهدت، سائلًا المولى -عزّ وجلّ- الإخلاص والقبول، والعفو عن الزلات، والتجاوز عن الأخطاء والسيئات؛ وحَسْبي أنني بشر، والبشر سيماهم الخطأ والتقصير ، وصلى الله- تعالى- وسلّم وبارك على إمام البرية وسيد البشرية سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

١ــ القرآن الكريم : من كلام ربّ العالمين:

٢ــ أسرار البلاغة: للإمام عبدالقاهر الجُرجاني، تعليق/محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، نشر مكتبة الخانجي، ط. أولى، ١٩٩١م.

٣ــ الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حَجَر العسْقلاني، تحقيق/ عادل أحمد عبدالموجود، و/على محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. أولى، ١٤١٥هـ.

٤ــ الأصمعيات: للأصمعي، تحقيق/عبدالسلام محمد هارون، و/أحمد محمد شاكر، دار

٥ــ المعارف، مصر، ط٧، ١٩٩٣م.

٦ــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٧ــ الأعلام : للزركلي، دار العلم للملايين، ط (١٥)، ٢٠٠٢م.

٨ــ الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة: د.موريس أبو ناصر، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

٩ــ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لابن هشام، تحقيق/ محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت، دون تاريخ.

١٠ــ البحث العلمي أسسه ومناهجه وأساليبه وإجراءاته: يحيى مصطفى، عَمان، بيت الأفكار الدولية، دون تاريخ.

١١ــ البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان الأندلسي، تحقيق/صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط سنة١٤٢٠هـ.

١٢ــ تاريخ آداب العرب: للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة ثانية، ١٩٧٤م.
١٣ــ تاريخ الأدب العربي: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦م.
١٤ــ تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٦٩م.
١٥ــ التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
١٦ــ الترغيب والترهيب : الحافظ المنذري، تحقيق/ إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. أولى، ١٤١٧هـ.
١٧ــ التصوير الفني في الحديث النبوي: د. محمد لطفي الصباغ، ط. المكتب الإسلامي، طبعة أولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
١٨ــ التعريفات : علي بن محمد بن على الشريف الجُرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان تحقيق/ مجموعة من العلماء بإشراف دار النشر، ط. أولى ، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
١٩ــ تمثلات المنهج الوصفي الإحصائي في الدراسات اللغوية، د. عاطف فضل، مجلة التربية والعلم، المجلد (١٧)، العدد (٤٠) ، سنة ٢٠١٠م.
٢٠ــ الجنى الداني في حروف المعاني: أبو محمد بدر الدين المرادي، تحقيق/ فخر الدين قباوة، و/أ. محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. أولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢١ــ جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد بن إبراهيم الهاشمي، مطبعة السعادة ، مصر، ١٩٦٥م، تحقيق لجنة من الجامعيين، نشر مؤسسة المعارف ، بيروت.

٢٢ــ جوهر الكنز – تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة–، نجم الدين ابن الأثير الحلبي، تحقيق د. محمد زغلول سلام، ط. منشأة المعارف بالإسكندرية، دون تاريخ.

٢٣ــ الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية: د. كمال عزّ الدين السيد، دار اقرأ بيروت، ط. أولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢٤ــ الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كُتُبُه، د. محمد لطفي الصباغ، ط. المكتب الإسلامي، ط(٦)، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٢٥ــ حروف المعاني والصفات: لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق البغدادي، تحقيق /علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى، ١٩٨٤م.

٢٦ــ الحيوان: للجاحظ، تحقيق/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٢٧ــ دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجُرجاني: تحقيق/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدّة، ط. ثالثة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٢٨ــ دلالات الألوان في القرآن: أبو إسلام أحمد بن علي، ط سنة ٢٠٠٨م.

٢٩ــ دلالات التراكيب دراسة بلاغية : د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، ط، ثانية ، دار التضامن ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٣٠ــ دور الكلمة في اللغة : ستيفن أولمان، ترجمة د/كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، الطبعة العاشرة، ١٩٨٦م.

٣١ــ ديوان الشمّاخ بن ضرار الذبياني، تحقيق/ صلاح الدين الهادي، دار المعارف ، مصر، القاهرة ، ط. أولى، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٣٢ــ ديوان النابغة الجعديّ، تحقيق/ واضح الصمد، دار صادر للطباعة والنشر بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.

٣٣ــ رصف المباني في شرح حروف المعاني: للإمام أحمد بن عبدالنور المالقي، تحقيق/ أحمد محمد الخرّاط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. دون تاريخ.

٣٤ــ شرح المفصل: ابن يعيش النحوي، تقديم: د/ إميل بديع يعقوب، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. أولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣٥ــ شرح النووي على صحيح مسلم، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط. ثانية، ١٣٩٢هـ.

٣٦ــ صحيح البخاري: تحقيق/ محمد زهير بن الناصر الناصر، نشر دار طوق النجاة، ط. أولى ، ١٤٢٢هـ.

٣٧ــ صحيح مسلم، تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي: نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.

٣٨ــ الصناعتين: لأبي هلال العسكري، تحقيق/ على محمد البجاوي، و/محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

٣٩ــ الصورة البيانية وقيمتها البلاغية ، د/ بسيوني عرفة رضوان ، دار الفكر الإسلامي ، طبعة ثانية ، سنة ٢٠٠٢م ، صـ٦٨ .

٤٠ــ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط(١)، ١٤٢٣هـ.

٤١ــ علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط. ثالثة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٤٢ــ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لابن رشيق القيرواني، تحقيق/ محمد محيي الدين، دار الجيل، ط. خامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤٣ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حَجَر العَسْقلاني، تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ- ودار الكتب العلمية، بيروت، ط. ثانية، ١٩٩٧م.

٤٤ــ الفروق اللغوّية ، لأبي هلال العسكري : تحقيق/ محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤٥ــ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: لابن القيّم الجوزية، مطبعة السعادة، مصر، ط. أولى، ١٣٢٧هـ.

٤٦ــ في البلاغة القرآنية: د/صَبَّاح عبيد دراز، مطبعة التركي بطنطا، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤٧ــ القاعدة والنّص قراءة في منهج بلاغة الفنّ القصصي: محمود بن سليمان القويفلي ، بحث نُشر في مجلّة جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، مجلد "٨"، العدد "٢"، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٤٨ــ قراءة في الأدب القديم: د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط. ثانية. ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

٤٩ــ الكليّات، معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة: لأبي البقاء الكفوي الحنفي، تحقيق/ عدنان درويش، محمد المصري، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى، ١٤١٢هـ .

٥٠ــ لسان العرب: لابن منظور، دار صادر ، بيروت، ط. ثالثة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

٥١ــ اللامات دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية، تحقيق د. عبدالهادي الفضيلي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط. أولى، ١٩٨٠م.

٥٢ــ اللامات: للزجاجي، تحقيق / مازن بن المبارك، دار الفكر، والدار البيضاء، سنة ١٩٨٥م.

٥٣ــ اللغة بين المعيارية والوصفية: تمّام حسّان، دار الثقافة، والدار البيضاء، سنة ١٩٥٨م.

٥٤ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل: تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرين، إشراف د/عبدالله عبدالمحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، ط. أولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٥٥ــ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن على الفيومي، نشر المكتبة العلمية، بيروت، دون تاريخ.

٥٦ــ مظاهر الطبيعة في الصحيحين دراسة بلاغية : مخطوط دكتوراة ، صلاح حبيب سليمان ، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود ــ جامعة الأزهر ، ٢٠٥م ، صـ٢٢٥.

٥٧ــ معاني الحروف: للرمّاني النحوي، تحقيق د. عبدالفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، ط. ثانية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٥٨ــ معترك الأقران في إعجاز القرآن ، للإمام السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م ، (٤٥/١) .

٥٩ــ معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، طبعة دار الفكر، ط. ثالثة، سوريا، ١٩٩٨م.

٦٠ــ معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٩٥م.

٦١ــ المعجم المفصل في الأدب: محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. أولى، ١٩٩٣م.

٦٢ــ المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس، وآخرون، دار الفكر، سوريا، ط(٣)، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٦٣ــ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق د/ مازن المبارك، و/ محمد علي حمدالله، دار الفكر ، بيروت، ط. خامسة، ١٩٧٩م.

٦٤ــ المفردات في غريب القرآن: للأصفهاني، تحقيق/ صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ١٤١٢هـ.

٦٥ــ المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، للشاطبي، تحقيق د/عبدالرحمن سليمان العثيمين، المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، مركز إحياء التراث الإسلامي، ط. أولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٦٦ــ مقاييس اللغة: لابن فارس، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ط. سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٦٧ــ من بلاغة الدعاء في الحديث النبوي : د/سلامة جمعة داود ، رسالة دكتوراه مطبوعة ، دار الشروق ، بدون تاريخ .

٦٨ــ من بلاغة السياق القرآني في الحديث عن الألوان: د/ سرحان حسن سرحان، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، العدد الحادي والثلاثون، المجلد الثاني، سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٦٩ــ موسوعة الحيوان (علمية – أدبية – لغوية – ثقافية)، إعداد/ غراتاقرة بتيان، الإشراف اللغوي د/إميل يعقوب، طبعة أولى، الدار العربية للعلوم، ١٤١٨هـ /١٩٩٨م.

٧٠ــ نقد الشعر: قدامة بن جعفر ، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط. أولى، ١٣٠٢هـ.

٧١ــ وحي القلم/ للرافعي، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠م.
٧٢ــ الوصف: سامي الدهان، ولجنة من أدباء الأقطار العربية، دار المعارف ، القاهرة، مصر، ط. ثالثة، ١٩٨١م.
٧٣ــ وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم: عبدالسلام أحمد الراغب، نشر فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط. أولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.